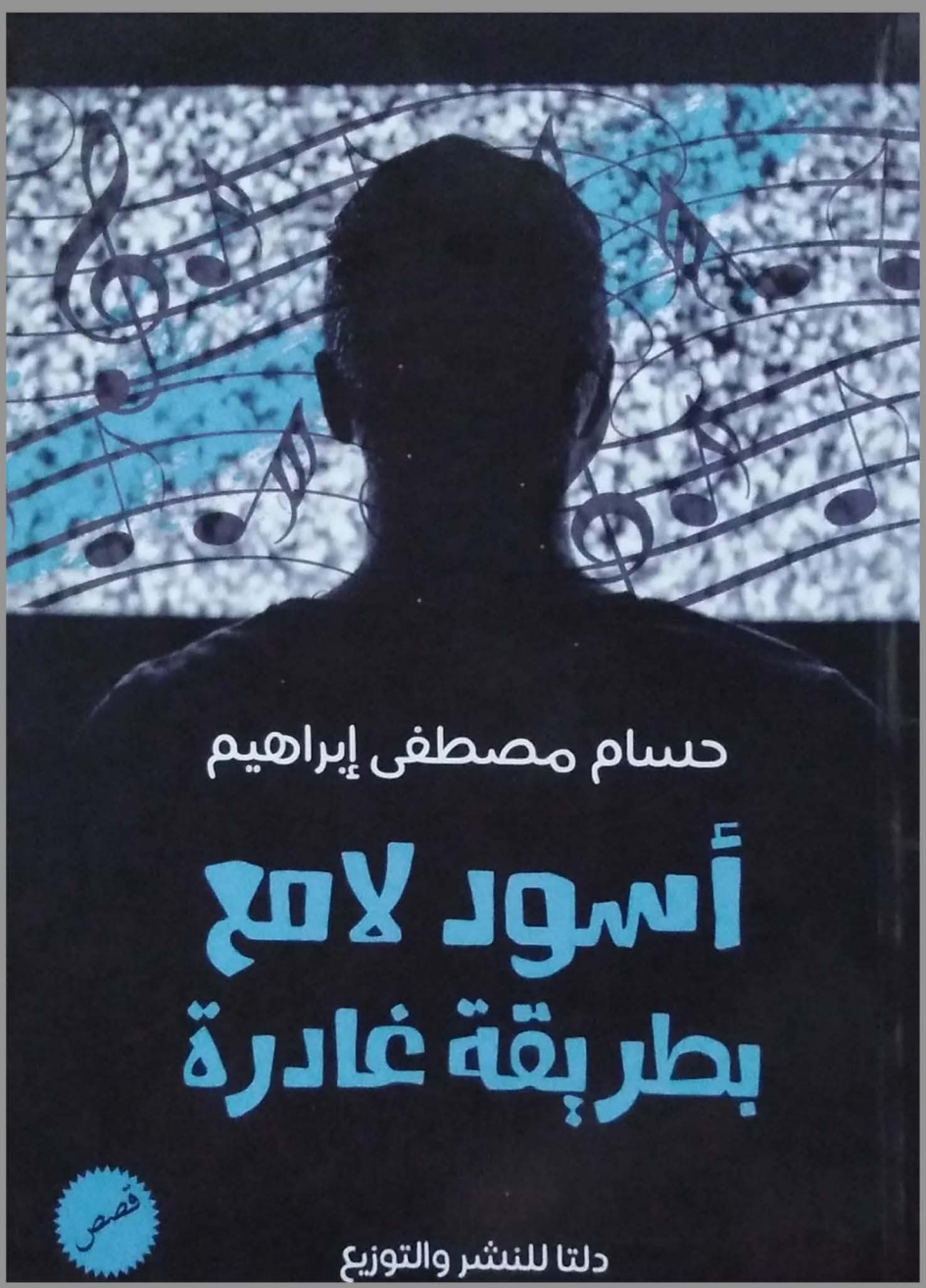

حسام مصطفى إبراهيم

أسود لامع بطريقة غادرة

قصص

دلتا للنشر والتوزيع

أسْوَد لامع بطريقة غادرة

حسام مصطفى إبراهيم

أَسْوَد لامع بطريقة غادرة

قصص قصيرة

دلتا للنشر والتوزيع

أهداء

إلى مصطفى وملك ونورا وأمي وأبي، من أبقى على قيد الكفاح من أجلهم.

آخر شمس

ربما تكون هذه آخر شمس تطالعها عيناي، ومع ذلك لم أقدر على منع نفسي من إزالة الجنزير الضخم، الذي أربط به بوابة البيت المهجور الذي أتخبأ فيه، منذ بدأتْ المحنة، وإزاحة المزاليج الضخمة التي أظل أراقبها طوال الليل وأنا أنام مُغْلِقًا عينًا واحدة، مترقبًا سقوطها في أي لحظة!

بهدوء، وفي حذر يشبه الحركة البطيئة في أفلام السينما -التي كنا نشاهدها من سنين- وبعد أن أتلفّتْ يمينًا ويسارًا عشرات المرات، أبتلعُ ريقي، وأخطو للخارج خطوة واحدة، محاذرًا أن أُصدر أدنى صوت!

الرياح التي تعبث ببقايا كل شيء، وتثير التراب ليُعمي العيون، والرائحة العطنة التي أصبحتْ علامة مميزة، لا يمكن تصوّر الحياة دونها في الفترة الأخيرة، وبقايا الخشب المُحترق التي تطقطق عبر المدى، على ركام منزل متهاوٍ.

يبدو أن وليمة كبيرة كانت مُقامة ها هنا، هذا هو التفسير الوحيد لكل هذه الأصوات المريعة التي ظلت تصكّ أذني أمس وأنا أرتجف!

بلهفة، لكن دون أمل كبير، أتقدّم إلى حيث البقايا، أجثو على الأرض، أتشمم في شوق وأمد يديّ أفتش في التراب، علّي أعثر بقطعة لحم أو نثارة عظم، تُسكّن الألم الحارق الذي يحتشد في معدتي ويدير رأسي ويدفعني رويدًا للجنون.

منذ متى لم أتناول طعاما.. ثلاثة أيام .. أربعة .. لم أعد أدري!

تصطدم يدي في أثناء بحثها بقطعة زجاج، تجرحها، وتدميها، إلا

أن هـذا لا يردعني عـما أفعـل، أقلـب حجـرًا عليـه آثـار دمـاء، وأنظـر تحـت بقايـا ماسـورة صرف صحـي متهدمـة، وأحفـر في موضـع بـدت قطعـة جلـد يابسـة بـلا معـالم مدفونـة فيـه، لا شيء، لا شيء البتـة!

تنتزعنـي مـن بحثـي المحمـوم، يـدٌ خشـنة وقاسـية، تقبـض عـلى مؤخـرة عنقـي فجـأة، فأفـزع، وأسـتدير قـصْرًا في عنـف، ثـم أتحـرك في عصبيـة وتشـنج، فأفلـت عنقـي، وأنـا أسـتل سـكينا حاميـة مـن طيات ثيـابي الرثـة، لكنـي أفاجـأ بضربـة يـد عنيفـة تُطـير السـكين مـن يـدي، وصـوت أجـش يتصاعـد بهمهـمات مُبهمـة ممطوطـة، واضحـة المعنـى وإن كانـت بـلا حـروف!

نحـوه كنـت أنظـر في هلـع، وقلبـي يـدق في عنـف، وإن كنـت أحـاول أن أتجلّـد، كان هـشّ البنيـة، أعجـف البـدن، تبـدو في رأسـه حُفـر صغـيرة مُنفّـرة بـدل الشـعر، ولكـن النظـرة الشرسـة في عينيـه واللثـام الأسـود المثقـوب، الـذي يغطّـي بـه وجهـه، يجعلانـه مهـولا في نظـري!

لحظـات مـن الصمـت والترقـب، وهـو يحتشـد، لكـي يوجّـه لي الطعنـة القادمـة، ليبـدأ بعدهـا المـرح، وأنـا أتراجـع للخلـف في عشـوائية، متفاديًـا السـقوط الـذي لـن تعقبـه قيامـة، بينـما أبحـث كالمحمـوم عـن وسـيلة أصـد بهـا هجمتـه!

يميـل نحـوي، وهـو يتهيـأ، أشـعر بفـوران الـدم في عروقـه، وسـيلان اللعـاب مـن فمـه، وتحـرّك التقلّصـات المميتـة في معدتـه، ودقـات قلبـه التـي تصـم الآذان، ونظراتـه التـي تتحـول ببـطء إلى رصاصـات لا غـرض لهـا إلا شـل إرادتي، وجعـلي أخضـع.

تحـين اللحظـة، فتقبـض يـده عـلى السـكين بـإصرارٍ المـوتُ دونـه، ويرفعهـا لأعـلى نقطـة ممكنـة، ثـم يهـوي بهـا مـرة واحـدة، نحـو قلبـي

مباشرة، في حركة خطافية مباغتة، يصاحبها صوت رفيع حاد ممطوط، لم أتخيل أن مثله يملكه!

بحلاوة الروح وحدها، وبقايا القدرة، أميل للخلف في عنف كاد يدق عنقي، وأمد يدي لأقبض على السكين، فيتمزق جانب راحتي، ويسيل الدم، فيهتاج أكثر، ويعاود الكَرّة، وهو يلقي بثقله كله على جسدي هذه المرة، فلا أتمكن من تفاديه كالسابق، ولكن حركتي المحمومة المضطربة، تجعل السكين لا ينغرز في قلبي، وإنما في لحم بطني، ليسيل المزيد من دمي!

يُجنّ، ويجز على أسنانه حتى تبدو عظام وجنتيه أشد بروزًا، يضربني بقدمه الحافية قذرة الأظافر في ركبتي، ثم في بطني، ويرتمي عليّ، فيكبل حركتي تمامًا.

أشعر بألم حارق ودوخة وصداع، هذه علامات غياب الوعي، وما هي إلا لحظات وأكون طوع بنانه، أشعر به الآن جاثمًا على صدري، يحاول أن يقبض على وريدي العنقي بأنيابه، يبدو أنه لا يطيق الانتظار حتى أنتهي!

يدي تعبث في الأرض بجنون، وأنفاسه تُميتني ألف مرة، وصوت فحيحه -على الرغم من خفوته- يكاد يخترق طبلتي أذني!

فجأة، تعثر يدي بسكيني، فأقبض عليها باستماتة، وبآخر ما تبقى لديّ من قوة، أغرزها في صدره بحركة مفاجئة، فيتأوه، وينتفض، ويقوم من فوقي كالملسوع، ينظر نحوي في ذهول، ثم يترنح وهو يسرع بالفرار وسكيني مغروزة في صدره!

أعتدل في جلستي بصعوبة، وأستند على الأرض بيدي، أسعل وأبصق وأنا أفتح فمي في نهم مجنون، محاولا اقتناص أكبر قدر ممكن من الهواء لرئتيّ اللتين كادتا تتحطمان تحت ثقله،

والإحساس المرعب بدنو النهاية!

لا بدَّ أن أعود لجُحري، إذ لا يمكن أن أستمر بعد كل هذه الإصابات، ودون سلاح، فلن يكون حظي حسنًا هكذا في المرة التالية!

أعتمد على بقايا الطوب والجدران المتهدمة، وأنهض، أكتم جراحي ببعض الخِرَق التي تتناثر في كل مكان، لئلا تفضحني الدماء السائلة، وأنا أدعو الله في سري ألا تبلغهم رائحتي.

مرات أقع على الأرض، وتصطدم رأسي بخشبة بارزة ملوثة بالقيء وبالدماء، ولكني أنهض، وأتعكز على الجدران وأمضي.

من بعيد تصلني أصوات مرعبة، ورائحة شواء وأبخرة سوداء، تتصاعد وتتشكل على هيئة سحابات ضئيلة، ترتفع بتؤدة للسماء، بكاء وصراخ وضحك وأصوات متداخلة مُكسَّرة الحروف.

أحثّ الخطى، وأنا أتلفت حولي في جنون، ويدي تقبض على صدري وتضغطه، كي لا ينفر قلبي مني، وأنا أتخيل أن هناك أصوات أقدام تطاردني في إصرار.

بابي الحديدي يلوح، أجرجر ساقيّ، وأُسرع أكثر، يبدو صوت الأقدام أعلى، وكأنه مُقيم في أذني، أركّز على بلوغ البوابة، ولا أعود أتلفت ورائي.

فجأة يخرج لي واحد من خلف جدار متهدم، بوجه نصف متآكل وقدم صناعية، يزمجر ويُلوح في وجهي بسكين، أتحامل على ألمي، وأعدو، وأنا ألهث وأجز على أسناني، وأشعر بعرق غزير يختلط بقطرات الدم، فيترك خلفي على الأرض خيطا طويلا لزجا.

يبرز واحد ثانٍ، وثالث، ورابع، يتوحّد هدفهم على بلوغي، أُسرع أكثر، وأمدّ يدي لأتلمس البوابة الحديدية الصدئة التي أخفتني في جوفها أيامًا، لكني لا أتمكن من بلوغها هذه المرة، فَيدُ أحدهم تمتد نحو قدمي، قبل لحظة الملامسة، وتقبض عليها بمخالب مستميتة، فأتهاوى في مكاني، وقد استنفدتُ كل طاقتي.

كانت أنيابهم الآن أبرز ما في وجوههم، حتى لكأنهم جميعا عبارة عن أنياب وأظافر، نبتت لها ملامح بشكل هامشي، وغير محدد، وغير ضروري أيضا!

أكثر ما أثار دهشتي، أنهم بعد أن أخرجوا سكاكينهم وخطاطيفهم، بدأوا يُقطّعون في لحمي، دون أن يوقدوا نارا حامية، ككل مرة، هذا تطورٌ خطيرٌ ومثيرٌ، إذ أصبحوا الآن لا يطيقون صبرًا حتى يطهوا صيدهم، وباتوا يفضلون أكله نيئًا.

كعوب البنادق

انتزعني من نومي القلق صوتُ الدقِّ المُفزِع بكعوب البنادق على الباب الخشبي المجروح في أكثر من موضع، ثم اقتلعتني أيدي الجنود الخشنة من فراشي، قبل أن أجد نفسي بين العديد من سكان الشارع، واقفين بمناماتنا وأعيننا نصف المغلقة وشعورنا المهوّشة، فوق الحصى والتراب وقطع الزجاج ومياه المجاري المتسرّبة من البالوعة المسدودة، دون أن يسمحوا لنا بارتداء الأحذية.

في اللحظات الأولى، كان بعض الواقفين يتجاسرون ويسألون عن سبب إيقاظهم بعد منتصف الليل، وإيقافهم بهذا الشكل المخزي أمام نسائهم وأطفالهم الذين خرجوا بملابس النوم هم أيضًا، وتحلّقوا حولنا في فزع، لكن الصفعة التي هوت فجأة فوق خدِّ أحدهم، فأدمت وجهه، ألجمت الجميع، وجعلت أزيز ذبابة هائمة تمر في المكان مسموعًا كدويٍّ قنبلة.

بعد لحظات، ألصقوا وجوهَنا بجدارٍ صلدٍ وبارد، وأرغمونا على إدارة ظهورنا لهم، على صوت سحب مسدساتهم وبنادقهم، قبل أن يتعالى دويٌّ هائل، يتبعه ألمٌ حارقٌ، شعرتُ به في قلبي أولا، قبل أن يتصاعد لباقي جسدي، وصولا لمخي الذي أحسستُ به يتبلّد فجأة، ثم يُومض وينطفئ في تعاقب مُوجع، قبل أن يندفع لإرسال إشارات متشنجة وسريعة ومتناقضة لأطرافي التي ارتختْ، حتى لم تعد قادرة على حملي، فتهاويتُ أرضا.

وبعد أن لاحظتُ استحالة الوضع الفيزيائي الذي اتخذه جسدي الساقط، حاولت لملمته، واتخاذ وضع أكثرَ راحة، إلا أن أحد الذين كانوا يراقبونني عن كثب، لم يُمكّني من فعل ذلك أبدًا،

حتى بدا أن كل مهمته في الحياة لا تزيد على إعادة بعثرة أعضائي بغلظة كلما التأمتْ، لكي أظل في هذا الوضع غير المريح إطلاقا!

بعد عدة دقائق، ومزيد من دويّ الرصاصات، واشتباك صرخات النساء مع بكاء الأطفال، بدأتُ أحسّ بثِقَل ضخم، يجثم على صدري، يزداد باطّراد، كان الجنود يكوّمون الجثث كلها فوقي، ويتعمدون -وهم يلقونها- أن يكون ذلك بأكبر قدر ممكن من الخشونة والفظاظة.

حاولت أن أعدل من اتجاه وجهي، لأنظر لجثة رجل عجوز يرتدي نظارة مكسورة، و«روب دي شامبر»، ويرقد فوقي مباشرة، بصعوبة بالغة.. نجحتُ، همستُ له:

- «هلا تفضلت وأبعدت يدك عن عيني قليلا؟».

لكنه لوى وجهه بعيدا عني، وهو يتمتم بألفاظ مبهمة، لم ألتقط منها سوى:

- «شباب آخر زمن!»

بعد ذلك، جاءت الشاحنات، ونزل منها رجال يرتدون ملابس مدنية مكويّة بعناية، وبدأوا يدفعوننا -وهم يتبادلون المزاح- داخل أكياس قماشية ممزقة في أكثر من موضع، مكتوب على بعضها كتابات ساذجة، أغلبها شتائم بذيئة، ويلقون بعضَنا فوق بعض مرة أخرى داخل الشاحنة، ثم يغلقون بابها في عنف.

اهتزازات الشاحنة كانت تضايقني جدا، لأنها تضطرني للاحتكاك بالرفاق الممدّدين حولي وفوقي، وفي كل مكان، الأمر الذي لم يكن مُريحا بالمرة، لأن بيننا خلافات قديمة، لم نكن نتصوّر معها أن يقترب أحدنا من الآخر إلى هذه الدرجة ذات يوم!

أحدهم انزلقتْ منه دمعة عابرة، نظر أكثرنا إليهنا باستنكار، وقال له أكثر من واحد في صوت صارم:

- «تجلّد.. ليست هذه أول مرة».

بعد فترة بدت طويلة نسبيًا، توقف الاهتزاز والصَّدم، ما دلنا على أننا وصلنا، وأكد ذلك أكثر ضوءُ الشمس الذي غمرنا فجأة بعد فتح الصندوق الخلفي، وتشهيل الرجال بإنزال أكياسنا على الأرض مرة أخرى.

كانت هناك حفرة ضخمة وعميقة للغاية، تفغر فاها على مقربة منا، فيما تتصاعد أصوات جنائزية داوية لمجموعة غربان ناعقة، تسنّ مناقيرها، أملا في الظفر بإفطار شهي فيما يبدو.

بدأ الرجال يسحبوننا، ويخرجوننا الواحد تلو الآخر من كيسه القماشي، وبعد عملية تفتيش سريعة، للاستيلاء على أي شيء ثمين يكون معنا بالمصادفة، يلقوننا في أعماق الحفرة.

حاولتُ هذه المرة، بعد أن وصلتُ إلى القاع، أن أتخذَ وضعًا مُريحًا لأعضائي، لأنني إن لم أفلح هذه المرة، فقد تكون مشكلة كبيرة، وشعرتُ بالبهجة لأن الرجل العجوز إياه عندما أُلقِي، نزل في مكان بعيد عني، في حين كان الرفيق الذي رقد فوقي مباشرة، طالب طب دمث الخلق، كنت أجلس معه أحيانا على المقهى، ما يعدني بأوقات طيبة في صحبته.

بدأ انهيالُ التراب علينا فجأة، مصحوبا بأصوات حادة مختلطة، وأوامر تُلقَى بلهجة عصبية وحاسمة، وصوت بلدوزر كبير يتحرك على عجل، دفع الجميع لمحاولة اختلاس نظرة أخيرة وعابرة لذرَّات الضوء التي ظلّت تعافر التراب وترافقنا لآخر لحظة.

بعضنا نجح وفعلها، فانتشى، وبعضنا الآخر، امتلأ حلقه بالتراب والحصى، فأغمض عينيه، وأرخى جسده، وتوقف تماما عن الحركة.

الحصّة الأولى

عازمًا على الشرّ وعيناي تطقّان شررًا، كنت أرفع الغطاء، وأجزّ على أسناني، بينما أغادرُ الفراش، وأنا أنوي أن أتشاجر حتى الموت مع ذلك السخيف الذي يصيح عبر مكبّر الصوت تحت نافذتي مباشرة بكل هذا الصخب والحماس للدرجة التي جعلتني أستيقظ دون أن أنال كفايتي من النوم!

أحسُ بدوار خفيف لوقوفي المفاجئ، فأجلس مرة أخرى على الفراش، ثم أمدُّ يدي لأتناول زجاجة المياه الموضوعة دائمًا إلى جواري على «الكومودينو»، ولكني أجدها فارغة، فأنهض بمزيد من الحنق وأتّجه للنافذة، لألقّن هذا المزعج درس العمر.

أفتح الشباك وأصيح في الرجل الضئيل الممصوص الذي يركب «التوك توك» المزوّد بميكرفون ضخم قبيح المنظر، وينادي من خلاله على شيء ما، أن توقف، ولكنه لا يلتفت إليّ، ولا يخفض من صراخه حتّى، فأصيح فيه بلهجة أكثر حدة، وباستخدام قاموس لُغوي مكشوف، لا ألجأ إليه عادة إلا في الطوارئ، علّه يرتدع، لكنه يستمر في تجاهلي باستفزاز، وكأنه لا يراني ولا يسمعني، ما أشعلني أكثر وجعلني أقرّر النزول إليه، لأعلّمه أن يختار خصومه في المرة المقبلة!

أفتح باب الغرفة في عنف، وأهم بالاندفاع خارجًا، لكنني أتسمر فجأة مبهوتًا من هذا العدد الضخم من النساء الجالسات في الطُرقة الطويلة التي تربط بين الصالة وغرفة النوم، وفي الصالون والغرف الأخرى، في زيهن الأسود الغريب، وشعورهن المحلولة، في حين يرتفع صوت بكائهن ونهنهاتهن مختلطا بآيات الذكر الحكيم التي تنساب من مكان ما، فشلتُ في تحديده تماما!

وقبل أن أفتح فمي بكلمة، أو أتخذ أي رد فعل، ألمح زوجتي وسطهن، تبكي بحرقة، وتلطم خديها بين الحين والآخر، فأحس بقبضة باردة تعصر قلبي، وأخمّن أن والدها المريض منذ شهرين قد مات أخيرا.

ولكن لماذا لم توقظني؟

ولماذا تتراص هؤلاء النسوة ها هنا بهذا الشكل الغريب وليس في بيت والدها؟

ثم أين كنتُ أنا بينما هذا السيرك يجري نصبه؟

وكيف لم أشعر بشيء حتى أيقظني صاحب التوك التوك اللعين؟

أشعر بزوجتي تكاد تجن، وقد بدأ نحيبها يتصاعد بشكل دوامي عاصف، وصديقاتها يحاولن احتواءها والتهوين عليها، لا شكَّ أنها تحتاجني الآن أكثر من أي وقت مضى!

ولكني عندما ناديتُ عليها، حتى بعد أن رفعتُ صوتي أكثر من مرة، لم تسمعني، وكيف يمكن أن تسمعني وسط كل هذا الصخب؟!

فلأعد لغرفتي لتبديل ثيابي أولا، ثم لأذهب إليها وأحتويها بين ذراعي، وأهدّأ من روعها!

الغريب أنني عندما رجعتُ لغرفتي، لم أعثر على أي ثياب تخصني، لا في الدولاب ولا الأدراج، ولا فوق شماعة الملابس، ما اضطرني في النهاية للخروج بمنامتي، واجتياز الطُرقة، متحاشيا -بصعوبة بالغة- الاصطدام بالنساء المرشوشات في كل مكان، وأنا أوزّع عبارات الاعتذار المبهمة على كل من أصطدم بهن،

وأرسم ابتسامة باهتة على شفتي!

وعندما وصلتُ لزوجتي، ربَتُ كتفَها، وهمستُ في أذنها:

- «البقاء لله يا حبيتي.. ربنا ريّحه»..

لكنها استمرتْ في بكائها العنيف دون أن ترفع رأسها نحوي، فمددتُ يدي لأسحبها نحو إحدى الغرف، لأفهم منها ما حدث بالضبط، وأخطط معها لما ينبغي علينا فعله، لكن إحدى السيدات التي دخلتْ للتو، صكت أذنيّ فجأة وهي تقول لزوجتي في حسرة:

- «ربنا يرحم جوزك يا حبيبتي .. ده كان ابن حلال والله!»

زوجها؟! زوجها من؟!

وفي اللحظة نفسها، كأنّما بترتيب مخرج عبقري، عاد صوت قائد «التوك توك» اللعين يرتفع مجلجلا، لكن بنبرات أكثر وضوحا هذه المرة، حتى إن أذنّي تمكنتا أخيرًا من التقاط كلماته بمنتهى الوضوح، والتي كانت تقول بالحرف الواحد:

- «تُوفّي إلى رحمة الله تعالى.. الأستاذ ضياء السيد داوود.. مدرس اللغة العربية.. والدفنة العصر من مسجد قباء»!

ضياء السيد داوود..ضياء السيد داو.... ضياء السيـ... لكن.. مستحيل.. أعني .. كيف؟ ومتى؟ ولماذا؟ ومن أنا إذًا؟ هل أحلم؟ هل...؟ لكن...

وبحلاوة الروح، وبالرعب والجزع والخوف من أن أعاين حقيقة لا تسرّ، وأقف على جُرف بلا قرار، بالترقب والقنوط والدهشة والصدمة والرغبة في معرفة رأسي من قدمنيّ مهما كان الثمن.. عدتُ أهزّ زوجتي بعنف، وأشدّها من يدها، وأصرخ

باسمها، وأنا أرفع يديّ لأعلى ما أستطيع، وأحركهما كالمروحة، لأشغل أمامها حيزا أكبر من الفراغ، لكن ذلك لم يغيّر من انهماكها بإخلاص في البكاء والتشنج والاهتزاز بحركة عصبية للأمام وللخلف.. توشك معها على السقوط من فوق كرسيها!

فلا أيأس، وألتفتُ للسيدات المحيطات بها، وأرفع صوتي لأعلى طبقة صوتية ممكنة، وأصيح:

- «أنا حي.. أنا ما موتش».

بل وأتجاسر وأمد يدي لأقبض على كتف إحداهن بقوة، وأشدها منها، بل وأشد أخرى من شعرها بمنتهى القسوة، ولكن شيئا لا يتغير!

أندفع كالمجنون ناحية المطبخ، وأستل سكينا حادة، أجرح بها يدي جرحا نافذا، وأنا أغلق عينيّ في قوة وأتداخل في بعضي.. متوقعا ألما هائلا، وفيضانا من الدماء، لكن شيئا لا يحدث، والسكين مغروسة في يدي حتى منتصفها!

مصدومًا أتهاوى على الأرض، أحرّك يدي التي لا تزال السكين تخترقها يمينا وشمالا، وأنظر إليها تارة، وتارة إلى الجمع المحتشد، ثم إلى سرب من النمل يفر بغنيمته من فتافيت السكر عبر خصاص نافذة المطبخ الموارية، دون أن أستوعب بعد حقيقة ما يحدث لي!

فجأة يزداد العويل، فأضطر لوضع يدي على أذني حتى لا تصابا بالصمم، وأنا أرى جمعًا من الرجال يشق الطريق إلى غرفة نومي في إصرار، حاملين ما يشبه المنضدة المعدنية الطويلة المليئة بالفتحات، فأقوم ملهوفا، وأنحشر وسطهم، وهم يدخلون الغرفة ويغلقون الباب من خلفهم، ثم يضيئون النور، ويمدون أيديهم

لجسدي الذي كنت أراه ممدا لأول مرة على الفراش!

بتؤدة، ووسط الأدعية والتهليل والبكاء، كانت الأيدي ترفع جسدي المسجى على المنضدة الحديدية، وتجرّدني من ثيابي، وتتناوب صب الماء المخلوط بالكولونيا على جسدي، وتقليبي من جانب إلى جانب، وإلباسي الكفن الأبيض، ولفّي فيه بإحكام، قبل إغلاقه بقوة، لدرجة أحسستُ معها بالاختناق، فسعلت بقوة دون وعي!

وبسرعة، انفتح باب الغرفة، واندفع الرجال حاملين الجسد الهامد، وهم يهرولون، وسط صرخات النساء التي أصبحت لا تطاق الآن، ومحاولات زوجتي المستميتة للتشبث بي، وإبقائي معها بأي ثمن (وهو ما كنت أشجّعها عليه بقوة عن طريق العبارات الحماسية التي لم تسمعها أبدًا) لكن الرجال شقوا طريقهم في النهاية، ووضعوني في خشبة ضخمة، حملها أربعة منهم، واندفعوا بي نحو المسجد.

ولأول مرة، أُحس بالطمأنينة والسلام، في هذا اليوم العصيب، عندما استقبل جسدي القبلة، وأعجبتني للغاية الكلمة التي ألقاها أحد المشايخ، وهو يحثّ الناس على الصبر وتذكر الموت في كل آن -لولا بعض الأخطاء الإملائية التي وقع فيها!- وعندما بدأتْ صلاة الجنازة، ووصلتْ للجزء الذي يجب الدعاء فيه للميت، دمعتْ عيناي، وأنا أتذكر أنني هذا الميت، وأنني مت قبل أن أحقق كل الأحلام التي سهرت الليالي أخطط لها!

بعد الصلاة، تستقبلنا الطُرقات المتربة مرة ثانية، وكلوبّات النور، والكعوب المتعجلة تهرول في الطريق، تريد أن تلحق المقابر قبل استحكام الليل، ومع أول طلّة لأول شاهد قبر بدا في الأفق،

شعرت باكتئاب هائل، وبأنني حقيقة قد مِتّ وانتهى الأمر!

وما هي إلا دقائق حتى وارى المشيعون جسدي التراب، وأغلقوا بابا حديديا ضخما عليّ (كأنما يخافون أن أغيّر رأيي وأعود إليهم مرة أخرى؛ فأضيع تعبهم ودموعهم هباء!).

في الركن جلست، على التراب وبقايا الراحلين، في الظلام والوحشة والخوف، تحت رحمة آلاف الأصوات الغامضة التي تدوّي فجأة وتنطفئ فجأة.. قبل أن أندفع بغتة في بكاء لا ينتهي، وأنا ما زلتُ غير قادر على استيعاب ما يحدث!

فجأة، أضاء نور قوي وحارق في عيني مباشرة، فأعماهما، ودفعني للصمت، هيَّابًا ومرتعبًا وزائغ العينين، اضطررتُ أن أقف مرتجفا، وأنا أرى الجسد الضخم المهول الذي يتقدم مني دون أن أتمكن من تمييز ملامحه أو تحديد أبعاده، وفي يده ما يشبه الدفتر!

لم يكن من سبيل لأتراجع أكثر من هذا، ومع أنني مدرك تمامًا أن الجدار لن يتسع ليُخفيني داخله، فقد واصلتُ دفعَ جسدي في الجدار من خلفي علّ معجزة تحدث ويبتلعني!

كان الجسد يبدو الآن أقرب إليّ من حبل الوريد، وملامحه تبدو لي مألوفة بشكل أو بآخر، ومع أول كلمة خرجتْ من فمه، أدركت أنني أعرفه بكل تأكيد:

- إيه يا أستاذ.. إنت اتأخرت ليه ع الحصة الأولى؟

- أبدا يا حضرة الناظر.. أصل يعني .. أنا مت!

-وإنت فاكر إن ده عذر يا أستاذ.. مخصوم منك ١٠ أيام.

-يا حضرة الناظر.. أنا .. أنا..

- ولا كلمة.. اتفضل على فصلك.. كفاياك تضييع وقت بقى.

وفُتح لي بابَ التربة بخبطة من قدمه العصبية، لأجد أمامي آلاف الطلاب على مقاعد مكسّرة ومتآكلة، يحدقون فيَّ بأعين حجرية، ويمسكون أقلاما صُنعت من العظام ويكتبون في كراسات مدبوغة بجلد بشري متهرئ، قبل أن يفتح يدي عنوة، ويضع فيها أصبع الطباشير، ويدفعني لأقف أمام الطلبة، ويمد يده -التي أدركت الآن فقط أنها عظمية تماما!- ويضرب جرس الحصة الأولى!

أَسْوَد لامع بطريقة غادرة

كنتُ أحاول -بأقصى ما أملك من إرادة- أن أُغلق عقلي تمامًا، في أثناء دوراني الرتيب حول الدائرة الكبيرة، لأتغلب على طوفان الأسئلة التقليدية الذي يجب أن يراودني في هذا الموقف، مثل: ما الذي أتى بي إلى هنا؟ وما هذا المكان بالضبط؟ وما هذه اللعبة اللعينة؟ مُركِّزا كل جهدي، على الإنصات بحرص وتبتّل، للدويِّ الجنائزي المتصاعد، الذي يأتي من مكانٍ، فشلتُ في تحديده تمامًا، لأستنفر عضلاتي وطاقتي، وأنطلق في الوقت المناسب، مع انسحاب آخر نغمة، نحو هدفي المصيري، قبل أن يسبقني إليه أيُ أحد.

المدة بين انطلاق الدويِّ، وتوقّفه، كانت تتغيّر كل مرّة، بصورة عشوائية، ودون سابق إنذار، مما يجعلني غير قادر على تخمينها، أو توقّعها، أو وضع خطة ملائمة، وما يجعل احتمال أن تكون ثانية الشرود الأولى، هي نفسها ثانية الحياة الأخيرة بالنسبة لي!

لا أعرف خُصومي، لا أسماءهم ولا ألوان عيونهم أو حالاتهم الاجتماعية، لا أسباب وجودهم هنا ولا آمالهم أو أحلامهم، فلم أسمح لنفسي بالإنصات للهمسات الحرَّى التي كانوا يمرّرونها بينهم على عَجل، أو تبادل نظرة أو كلمة مع أحدهم، حتى لا تتولّد بيننا مساحات إنسانية واهية ..تقودني إلى حتفي!

غير السقف البعيد المرتفع المِلِيء برسومات قبيحة لنسور وثعابين وأرغفة خبز سوداء مكسَّرة وشيطان يبكي على جثة طفل صغير، وزهور بألوان فاقعة تبدو غير حقيقية بالمرة، كانت هناك الأرضيةُ التي نلف عليها -بلا أحذية- مغطاة بسيراميك أسود لامع بطريقة غادرة، تسمح بتسلل برودته لأطرافي، في

نفس الوقت الذي تعكس فيه جزءًا من ملامحي بطريقة مشوَّهة، وخرافية، تجعلني أزهد النظر إليه ثانية.

وبالإضافة لصوت الدويّ، كان يمكنني -بين الحين والآخر- أن أميّز أصواتًا بشرية مختلطة، تتصاعد مع لحظات الإثارة، وتهمد مع لحظات الترقب، وكأنه جمهور خفيّ يترصد سكناتنا وحركاتنا، وينفعل بها!

فجأة، تأتي اللحظة، وينقطع الدويّ، فأنتفض، وأتجمَّد ثانيةً قبل أن أندفع بأقصى قوة ممكنة، كإلكترون في نواة ذرة، أو شحنة كهربية في عروق سلك، لأصطدم بالجسد الذي وقف فجأة في طريقي، وأنحّيه جانبًا في قسوة، بينما ألقي بنفسي في استماتة فوق أحد الكرسيين المتبقيين، غير مبالٍ بأظفاره التي أنشبها في ساقي فانتزعتْ قطعة كبيرة من لحمي، ولا صوت نشيجه ثم عوائه الذي انغرز كإبر حادة في مخي.

كنت أهتزُّ من الألم، وألفُّ رجليّ حول الجزء السفلي من الكرسي في تشنّج، وأعتصر قلبي بيدي حتى لا يخترق صدري، وأجاهد لأكبت النشيج الذي أوْشِكُ على الانفجار به، عندما ظهر الرجل ذو النصف قناع من جديد، بابتسامته الطفولية ومدفعه الرشاش، ودون كلمة واحدة، غَرْبَل جسدَ الخاسر، ليختلط صوتُ الطلقات بصوتِ الصراخ الذي تخللته كلمة استعطاف أو كلمتان، قبل أن يسود الصمت التام مرة أخرى.

وبلا انفعال، ضرب نصفُ المقنع الجسدَ المسجّى أمامه بحذائه الأبيض الصغير، ليزيحه عن طريقه، قبل أن يتّجه لأحد الكرسيين المتبقين، ويُطلق النار عليه في سخاء، فينسفه نسفًا، فلا يتبقى سوى كُرسي واحد، تحرّك من تلقاء نفسه نحو منتصف الدائرة،

وانطلق الدويّ مرَّة أخرى بغتة، كأعلى ما يكون هذه المرة، فانتفضنا، وبدأنا الدوران حوله أنا وخصمي الوحيد من جديد.

كنت ألهث، وأتمايل، وأعرج وأنا أدور، وأرى الدنيا عبر شبكة دقيقة من خيوط العرق والدمع الذي انسال أخيرًا من عيني، لكني أجاهد كي لا أسمح للألم بالسيطرة عليّ، أتجاهل قطرات الدم التي تلوِّث الأرضية، وأتحاشى النظر إلى وجوه القتلى الجاحظة، وأسد أذني عن صراخ الجمهور الخفي الذي ارتفع لدرجة مميتة الآن، وأتحوَّل كلّي إلى أذنين تتنفسان الدويّ وحده، وتعيشانه، وتتوحدّان به، في انتظار لحظة توقّفه المُقدّسة.

الحب الأول

شعر بسعادة غامرة أنسته حذره المعتاد، فأطلق تنهيدة ارتياح في اللحظة التي تلقّى فيها أوامره منه، واكتشف أنه لا يزال من المَرضِيّ عنهم، بل وكاد يعود لقلة حذره مرة أخرى، فينحني على يده ويقبّلها، عندما أمره بالانصراف بطرف عينه، من ناحية لأنه كان مرعوبا من المقابلة، ولم يصدّق أذنيه عندما أبلغه «يسطويسي» أنه يريده، وظن أنه ارتكب مصيبة وسوف يُعلَّق بلا رحمة، ومن ناحية أخرى لأن المهمة التي كُلِّف بها كانت ممتعة لأقصى درجة!

ولم تمض سوى ساعة واحدة، حتى عاد اسمه يتردد مرة ثانية بين زملائه، إلى أن وصله الاستدعاء، فانتفض واقفا، وعدل هندامه، وأسرع للغرفة التي أرشدوه إليها، وقالوا له إن «الشغل» ينتظره فيها!

دفع الباب بقوة كما أمروه، وتقدم بخطوات بطيئة وثقيلة، وسعل في خشونة وهو يخطو إلى الداخل، ثم صَفَق الباب خلفه في عنف، قبل أن تقع عيناه على «الشغل».

فتاة هشة ونحيلة، متكوّمة على نفسها جوار الجدار، وقد تمزّق ثوبها في أكثر من موضع، وتجمّد خيط رفيع من الدم بالقرب من شفتها السفلى، ويبدو أنها لم تنم أو تأكل منذ فترة طويلة!

«لا شأن له»، هكذا حدّث نفسه، وهو يتقدّم منها، بينما يخلع قميصه، دون أن ينطق ببنت شفة، كما نبّهوا عليه، وعندما انتهى من فك حزام البنطلون، بأكبر قدر ممكن من الصخب، ووقف بالملابس الداخلية أمامها، رفعتْ الفتاة عينيها إلى عينيه في وهن، فتسمّر في مكانه مذهولا، وأحس أنه داس سلكًا خفيًا أوصل لجسده مئات الفولتات!

مـرَّت ثـوان، وكلاهمـا لا ينطـق، ولا يتنفـس، كأن الزمـن انقلـب على ظهـره ميّتـا، أو عـاد سـنوات للـوراء، إلى حيـث لم يتمنيـا أن يمـضي، لكنـه -ككل الأشـياء الجميلـة والقبيحـة- مـضى ضـد إرادتهـما حتـى وضعهـما ثانيـة في مواجهـة أحدهمـا الآخـر!

انفتـح البـاب فجـأة ودخـل «هـو» في تـؤدة، نظـر إليـه بـلا مبـالاة، ثـم توجّـه للفتـاة وأوقفهـا في عنـف عـلى قدميهـا، فأنّـت، صفعهـا عـلى وجههـا مرتـين، قبـل أن يقـول بصـوت بـارد:

- هتمضي، ولا...؟

لم تنطـق الفتـاة، فركلهـا في بطنهـا، حتـى انثنـتْ عـلى نفسـها، وسـقطت عـلى الأرض، فبصـق عليهـا، وتوجّـه نحـوه ببـصره، قبـل أن يـصرخ فيـه:

- عايز أسمع «صويتها» من مكتبي.

ومـرّ مـن جانبـه بقـوة، كادت تُفقـده توازنـه، قبـل أن يصلـه صـوت انغـلاق البـاب في عنـف.

عـاد يحـدّق فيهـا، وهـو لا يـزال غـير قـادر عـلى النطـق بكلمـة، حتـى مـزّق الصمـتَ صوتُهـا المرتجـف وهـي تقـول:

- ما تيلا ..نفّذ أوامر سيدك.

أخيرا فتح الله عليه بكلمتين، فقال بصوت مبحوح:

- هو عايزك تمضي على إيه؟

- مش هتفرق.

- أرجوكي.

- كله محصّل بعضه.

- مـا تخافيـش منـي.. أنـا عمـري مـا هأذيكـي.. والله مـا هأذيكـي.

لم تـردّ، سرحـتْ عيناهـا قليـلا حتـى تلكّأت عنـد عينيه، واسـترختا، شـعرت بنسـمة هـواء تتسـلل أخـيرًا إلى محنتهـا، فتُرطّـب روحهـا. همسـتْ:

- أنا ما شربتش من امبارح.

انتصبـتْ قامتـه، وهـمَّ بفتـح البـاب ليحـضر لهـا مـاء، لكنـه انفتـح مـن تلقـاء نفسـه في عنـف حتـى ضربـه في وجهـه، وواحـد آخـر يخطـو عـبره في صرامـة، حدّجـه بنظـرة ناريـة، ثـم أشـار إلى ملابسـه الداخليـة وقـال بسـخرية:

- العرض لسه ما بدأش ليه؟

ثم شدّ كرسيًا وجلس عليه، وهو يشير إليه أن يبدأ.

تـردد للحظـة، لحظـة واحـدة فقـط، كانـت كافيـة لانفجـار قذائـف الشـتيمة في وجهـه، قبـل أن يهـوي القَلـم عـلى قفـاه، فـيرنّ بصـوت مُجلجـل، جعلـه ينتفـض ويمـدّ يـده فيمـزق ملابسـه الداخليـة بضربـة واحـدة، قبـل أن يندفـع نحوهـا كثـور هائـج.

نظـرتْ إليـه في رعـب، قبـل أن تجـد نفسها أسـفله عـلى الأرض، وهـو ينقـضّ بمخالبـه في كل مـكان، فيمـزّق ملابسـها مـرّة، ومـرّة لحمهـا، دون أن تُجـدي خمشـات أظافرهـا ودفْعُهـا بقدمهـا في صـدره شـيئا!

ورغـم نيّتهـا ألا تـصرخ، لتسـلبهم انتصارهـم عليهـا، لم تسـتطع منـع النحيـب والعويـل اللذيـن اندفقـا مـن صدرهـا فجـأة لا إراديـا وهـو

يخترقها، ويُغرقها بالدم، على خلفية ضحكات متشفّية مقيتة، وحركة يد تحمل الموبايل، تذهب به وتجيء لتصوّر كل ما يجري في نشوة!

أبو جبل

كنتُ مُنهكا للغاية، وأنا عائد لبيتي بعد يوم عمل، لم تكن تبدو له نهاية من أي نوع، بعد أن شَهِد ثلاثا أو أربعًا من تلك الخناقات العاصفة، التي لا تدري لِم بدأت وكيف انتهت، ولماذا اشترك فيها الجميع تقريبًا، حتى من لا علاقة له بأي شيء!

ومع انكتام صدري وانحشار النَفس فيه من حين لآخر، وتواطؤ قدمّي على الانثناء تحتي والتصلب مرة بعد أخرى، وعدم وجود تاكسي في هذا الوقت، قررت أن أختصرَ الطريق، لأمرّ من أمام المقابر المُوحشة، وهو ما كنت أتجنّبه عادة، سواء بالليل أو بالنهار، رغم أنه أقصر طريق بالفعل إلى منزلي، ولكن حلم اختصار بضعة مترات كان يُغريني بالمخاطرة هذه الليلة.

ومع أن قريتنا غير مشهورة -كغيرها- بقصص الجنّيات والعفاريت وعرائس البحر وأغانيها الحزينة ليلا، فقد ظللتُ أرهب منطقة المقابر طوال عمري، وأتحايل كي لا أضعها ضمن خططي اليومية، بإحساس فطري أن هذا أفضل!

بالرعشة التي تتزامن مع كسرك المحظورَ لأول مرة، وتعب اليوم بأكمله، وحلم انتهاء كل هذا على خير، كنت أضعُ قدمّي على أول طريق المقابر، متعمدًا ألا أنظر في الساعة، وإن كنتُ قد قدّرت أنها نحو الثانية عشرة ليلا أو يزيد، في نفس الوقت الذي كنت أشغل فيه نفسي بمحاولة تخمين عدد العواميد المطفأة على جانبي الطريق، مقارنة بالتي يترنح فيها الضوء على استحياء ودون نية حقيقية في تمثيل أي فارق!

صوتُ ارتطام الحذاء بالأرض، وتعلّق بعض ذرّات التراب به، وسقوطها مرة أخرى في حسٍّ مكتوم، مختلطا بنقيق ضفدع

وحيد، وبصّات واهية لقمرٍ منزوٍ، وهبّات عشوائية لريحٍ محمّلة برائحة الليل، وهمسات بعيدة لأحاديث ماتت من زمن ويبدو أن هذا هو كل ما تبقى منها في ذاكرة المكان.

ألمح هذا الجمع الصغير من الرجال الذين يسيرون في بطء، وهم يحملون فوق أكتافهم نعشًا خشبيًا، يترنحون تحت ثقله، وصوت أحدهم يشق السكون في قوة:

- «وحّدوه».

فترد عليه أصوات متداخلة بنبرات وطبقات صوتية مختلفة:

- «لا إله إلا الله».

أتوقف، وأُفسح لهم الطريق، وأنا أردد الشهادتين في سرّي، وأدعو للميت بالرحمة، فيضع أحدهم يده على كتفي بقوّة، ويشدني للانضمام للجمع، وهو يهمس في أذني بخطورة:

- «أبو جبل .. تعيش إنت».

فأتلعثم وأنا أقول له:

- «أ..أ..أنا ما أعرفوش».

فينظر نحوي باستنكار ودهشة، ويبدو أنه لو لم يكن هؤلاء الناس موجودين، لكان قد صفعني على وجهي، وربما ركلني مرة أو اثنتين، قبل أن يُبلغ عني أمن الدولة!

ولكنه كان كريمًا للغاية، فاكتفى بتشديد قبضته على كتفي، وسحبي وراءه قسرًا، وهو يردد مرة أخرى:

«أبو جبل.. تعيش إنت».

كان الجو خانقا، ورائحة عرق الرجال تختلط بالكولونيا

الرخيصة التي يرشّها أحدهم على النعش من حين لآخر، بالإضافة إلى رائحة دخان الشيشة والسجائر التي كانت تحاصرنا كلما مررنا على مقهى لا تزال أبوابه مفتوحة وزبائنه ساهرين حتى هذا الوقت المتأخر من الليل!

وكلما تقلّب عليّ التعب، وثقلت خطواتي، وحاولتُ التسلل من وسطهم، وجدت أحدهم يحاصرني بنظراته الصارمة، ويتحرك بجسده -الضخم دائما!- ليحول بيني وبين الخروج من طابور المُشيّعين، مهما فعلت!

ولما وصلنا بوابة المقابر، بعد دقائق شاقة ومشحونة بالتوتر، كنتُ قد اتخذتُ قرارًا نهائيًا بعدم اجتيازها مهما فعلوا، فهذا أمر يفوق احتمالي بكل تأكيد، خاصة وأنني والله العظيم لا أعرف أبو جبل هذا، ناهيك بأني لا أعرف حتى الرجل الذي أبلغني بالخبر المشئوم!

أبطأتُ من حركتي، وبدأتُ أتجاهل نظرات من حولي في إصرار، وأنا أتخذ طريق الخروج من وسطهم بشكل تدريجي، لكنني وجدت أحدهم يدفعني بقوة، لأرتطم بأحد حاملي النعش الخلفيين، الذي تنحّى فورا -كأنه كان ينتظرني!- وهو يدفع إليّ بأحد أطراف النعش بتلقائية، لأجد أنني -لا أعرف كيف!- قد أصبحت ضمن حاملي النعش، في الوقت نفسه الذي كنا نجتاز فيه بوابة المقابر الصدئة، على ضوء الكشافات التي بدأتْ -أو هكذا خُيّل إليّ- تتراقص في جنون!

وما إن اجتزنا البوابة، وتوجّهنا للتُربة، حتى خفتتْ الأصوات والهمهمات والزفرات، وغابت رائحة الكولونيا تمامًا، وبدأتُ أشعر أن عدد المشيعين يتناقص بالتدريج، وهو ما لم أستطع

التأكد منه بشكل قطعي، بسبب الحِمل الثقيل الذي كانت كتفي تنسحق تحته، ومحاولاتي المستميتة كي لا ينزلق النعش مني، فيتعرّض الميّت للأذى!

عبر حارة طويلة وضيقة، لم تفلح أضواء بعض العواميد المضاءة في تبديد شيء من جهامتها وكآبتها، تراصت على جانبيها القبور ونباتات الصبار وبقايا كل شيء.. أثاث وقطع غيار.. وكتب.. وأحذية.. وأخشاب.. ولعب أطفال.. ومواد بناء، سار الركب الذي استطعتُ التأكد -عبر نظرة عابرة وخاطفة- أنه لم يعد يتكوّن إلا من حاملي النعش الأربع فقط، في حين اختفى جميع المشيعين الذين كانوا يحفّونؤر بنا طوال الطريق!

كنت أشعر بالدهشة وبالسخط، وبالتعب كذلك، لدرجة أنني فكرت ذات لحظة في أن ألقي النعش أنا الآخر وأفرّ بجلدي، لكن حُرمة الموت وهيبته منعتاني من ذلك، وجعلتاني أقرر أن أتحمّل حتى أوصل الميت بسلام.

لقد حدث ما حدث وأصبحت في المقابر رغما عني وانتهى الأمر!

بدأ نعيق الغربان يُحيط بنا من كل مكان، بالإضافة لأصوات غريبة ومكتومة، لو طاوعتُ نفسي لقلت إنها ضحكات ضِباع، لكننا لسنا في الغابة حتى يكون ظني في محلّه على أي حال!

وصلنا أخيرا إلى التُربة التي سيُدفن فيها الميت، كانت مفتوحة لحسن الحظ، وبجانبها بضعة قوالب من الطوب والأسمنت الطري والماء، فأنزلنا النعش على عجل، وهممتُ بالانصراف، لأفاجَأ باستعداد الثلاثة الآخرين للانصراف مثلي!

توقفنا جميعا في اللحظة نفسها، ونظر أحدُنا للآخر بدهشة، قبل أن يدور بيننا حوارُ قصير أغلبه بالعيون، اكتشفنا بعده أن أحدا فينا لا يعرف أبو جبل من قريب أو بعيد، وأن ظروف اشتراكنا في الجنازة، متماثلة تماما!

وعلى الفور، أطلق أحدهم سُبّة بذيئة، وقرر الانصراف مهما حدث، فهو لا شأن له بكل هذا الهراء، والآخر تردّد قليلا، قبل أن يقرر هو الآخر اللحاق بالأول، ويغيبا في الظلام، فلا يتبقى في النهاية سوى العبد لله، مصدوما حائرا خائر القوى، بصحبة الرجل الثالث الذي لم يسمح له ضميره، بأن يترك الميت بلا دفن!

بعد تبادل النظرات معه، عُدنا للنعش، وتعاونّا على نزع غطائه، ومددنا أيدينا في بطء ورهبة لرفع الميت، قبل أن يتبرّع الرجل ويدخل التربة، ويتلقاه مني، ثم يغيب في الظلام، ليُسكنه دارَ القرار!

وبعد مرور خمس دقائق وربما عشر، لم يخرج فيها الشاب، أحسست بالقلق، ومددتُ رأسي للداخل بحذر، كي أطمئن عليه وأسأله لماذا تأخّر، مُقدِّما لمباغتتي بنحنحة مبحوحة من حلقٍ جاف، وترديد كلاسيكي لعبارة «يا ساتر».. لكنني حين انكشف البصر واكتملت الرؤية.. لم أجد على مد البصر أمامي أحدًا!

توقفتُ عن التنفس للحظة.. وشعرتُ بالرعب، وعندما ارتفع صوت دقات قلبي، كان يصمّ الآذان، وكأنه يتخبّط داخل قفصي الصدري، بينما كنت أطيلُ التحديق في التُربة الخالية التي دخلها أمام عينيّ منذ دقائق معدودة، شاب طويل عريض وجثّة، عاجزا عن إيجاد تفسير منطقي -أو حتى غير منطقي!- لما يحدث، غير

أن أشك في سلامة قواي العقلية!

وقبل أن أفقد ما تبقّى من سيطرة على أعصابي، أو أبدأ في الصراخ والبكاء مثل الأطفال، قررتُ المغادرة بأسرع وقت، فأعطيتُ ظهري للتربة فورًا، وهممتُ بالسير ناحية بوابة الخروج، فقط لأشعر بهذه الهزة الخفيفة، التي جعلتْ الأرض ترتجف من تحتي، قبل أن أفقد توازني مرة واحدة وأسقط على الأرض.

وفي اللحظة التالية، كان أمام عيني هذا المشهد الذي شاهدته كثيرا في أفلام الرعب القديمة، الأرض وهي تنشق في مواضع محدّدة، ويخرج منها بعض الأشخاص، غير أنهم لم يكونوا هياكل عظمية كما توقّعت، وإنما آدميون -تقريبا- لكنهم رثو الثياب، عفنو الرائحة إلى درجة مقيتة، لحمهم متهرئ، وعيونهم شديدة الجحوظ!

كانوا يتقدمون نحوي في بطء، وهم يضحكون ضحكات حادة وغائرة، كصوت سرداب ينفتح لأول مرة بعد آلاف السنين، في حين مدّ أحدهم يده إلى جيبه المليء بالبقع والخروق، واستل «مطواة قرن غزال»، قفز بها نحوي ووضعها تحت رقبتي في عنف، تسبب في إسالة بضع قطرات من دمي، قبل أن يقول بصوت مبحوح ومُترب:

- «طلّع اللي معاك»!

لم أفتح فمي بكلمة، ولم أحرّك ساكنا، فلم تكن لديّ لا طاقة ولا قدرة على فعل أي شيء الآن، وقد بدأ وعيي يتسرّب مني بالفعل، حتى سقطتُ على الأرض أخيرا، وأنا أمنّي النفس بألا أستيقظ مرة أخرى.

لكن الغريب أنني لم أفقد الوعي أبدًا، وإنما بعد ألم الارتطام المبرّح، الممزوج بصدمة عصبية لا شك فيها، وجدتُ العشرات ينقضون عليّ، ويدسّون أصابعهم الطويلة الحادة في جيوبي، ويستخرجون منها متعلقاتي الشخصية؛ راتب الشهر، ومفاتيح البيت، والمحفظة، وعلبة السجائر والولاعة، قبل أن يُشعل أحدهم سيجارة، ويبدأ في تمريرها للآخرين، وينفرد آخر بموبايلي في الركن، ويطلب نمرة ما، ثم يبدأ حديثا هامسا طويلا!

فجأة سطع ضوء قوي في المكان، ووجدتُ أبو جبل الذي دفناه منذ دقائق، يخرج من تربته على عجل، وهو يرتدي الكفن الأبيض، ويتقدّم مني، فهرعت إليه، قائلا برجاء وأنا لا أكاد أميز بين الحروف:

- «أنا اللي وصّلتك».

لكنه نظر نحوي بلا مبالاة، وأخرج هو الآخر مطواة حادة للغاية من داخل الكفن، نَغَزني بها في عنقي، فتلوّث طرفها بالمزيد من دمي، قبل أن يأمرني أن أخلع ملابسي!

ومع أنني كنت أريد حقيقةً أن أندهش، أو أعترض، أو حتى أُسلم ساقيّ للرياح، لم يُمكّنني نصلُ السكين الذي انغرز في عنقي أكثر، من فعل أي شيء إلا الاستجابة لطلبه!

وفي اللحظة التالية، كنت أقف أمام كل هذا الجمع عاريا كيوم ولدتني أمي، في حين يخلع الميت أكفانه، ويرتدي ملابسي، قبل أن ينقضّوا عليّ جميعا فجأة، ويدفعونني دفعا لدخول القبر الفاغر فاه، ويُلقونني هناك!

كان صراخي الآن مدوّيًا، والرعب البدائي المتوحش يندفع من كل عرق في جسدي ليدّي، فتخمشان في جنون الحائط الأسمنتي

الـذي أغلقـوا بـه بـاب القـبر في إحـكام، في حـين كانـت أصواتهـم الخشـنة تتباعـد وهـم يلقـون نـكات بذيئـة للغايـة، ويضحكـون عليهـا مـن أعـماق قلوبهـم!

حياة أخرى كاملة

لم تكن مفاجأة لي على الإطلاق أن أراها اليوم قادمة من بعيد، فهذا ما خططتُ له طوال اليومين السابقين، بمجرد علمي أنها لا تزال تتردد على نفس المقهى القديم!

ورغم أنني كنت أُحضِّر عشرات السيناريوهات لشكل اللقاء، ونبرة الصوت التي أنوي التحدث بها، والكلمات التي سوف تقال، وانفعالات الوجه وحركة الجسم في أثناء ذلك كله، وجدتُ مخي يتجمّد فجأة للحظات، قبل أن يُصدر صفيرًا طويلا متصلا، يشبه صفير أجهزة «المونيتور» المتصلة بقلب مريض كفَّ عن الحياة!

«فرح» -زميلتنا المشتركة التي جمعتني بها مصادفة مدهشة عند طبيب الأسنان- هي التي أخبرتني بوجهتها التي ظلتْ تواظب عليها منذ كنا طلبة في الجامعة، عندما كان هذا المقهى ملاذنا المفضّل للهروب من زحام المحاضرات وثقل العلم وسخافات الأصدقاء.

لم يكن سهلا عليّ أن أُلغي جميع مواعيدي، وأستمر في الحضور بشكل يومي إلى المقهى -الذي لم يتغيّر كثيرًا- لكني فعلتها من أجلها، وها هي ذي تحقق لي حلمًا عمره عشر سنوات كاملة، وتُشرق أمام عيوني، وتمدّ الخطو في تمهّل، لتدخل أكثر في مجال إبصاري، فتتشربها مسامُ روحي وترتشفها قطرات دمي ويغرق في فتنتها البصر والبصيرة!

فاجأها حضوري غير المتوقع واحتلالي حيزًا من الفراغ أمام عينيها مباشرة، فلم تنطق وإن شعرتُ بسيل من الكلمات والمشاعر يتفجر من أعماقها ويكاد يجرفني في طريقه: عتاب وشوق ولوم

وحب وكره وفرحة وابتسام ودمع وتقطيب وانبساط وغضب ودهشة ولا مبالاة وترقب ومفاجأة وعدم تصديق!

كانت السنون التي أعطتنا ظهرها وولّت ذات يوم، تنتصب أمام أعيننا من جديد، تتكاتف وتنتظم في الصف، تنفض التراب عن ثيابها، وتتخذ زينتها، فتصحو الجامعة بأيامها ولياليها، تستيقظ رحلات الرفاق بنزواتها ونكاتها، وتقوم المشاعر بجموحها وبراءتها، وتنهض الوعود بصدقها وكذبها، وتُبعث الأحاسيس برونقها ورهافتها، وينبت للأحلام ريش، ويُنفخ في صُور الحكاية بأكملها، فتنهض من قبرها لتكون ثالثتنا!

أين تختفي الحروف والكلمات عندما نقف أمام امرأة نحبها؟!

وأين تختبئ المعاني عندما نكون في أمسّ الحاجة لنَظْمِها عقدًا يُزيّن جِيْد من ندينُ له بسرّ الحياة؟!

وقفنا، كلانا يُحدّق في الآخر في صمت، يمرّ البشر من حولنا بالتصوير البطيء، الزمن نفسه أصبح يحبو وكأن أحدًا نزع القابس الخاص به، ففَقد مصدر طاقته!

ومع أنني كنت أتفرح أن تكون أول كلمة من نصيبي بعد كل هذا الفراق، وأن تكون «سامحيني»، فقد سبقتني -كالعادة- ومدّتْ يدها الهشة رفيعة الأصابع التي أعشقها، مُنهية حالة الذهول التي تملكتنا، وهي تقول:

- «وحشتني!»

وكأنها أزاحتْ الصخرة الهائلة التي كانتْ تعوق السيل عن الانطلاق، أو فتحت ثقبًا وحيدًا في غيمة تحتجز المطر، أو رفعت الغطاء عن غلاية تحتدم بالبخار.. اندفعتُ نحوها بلا تعقل،

ودون أي حساب لما يمكن أن يُسفر عنه تصرفي الأرعن، وعلى مرأى ومسمع من الجميع.. احتضنتُها!

كانت ترتعشُ بين يديّ اللتين التقتا من حولها كأنهما سور يمنع الحياة ذاتها من الفرار، وأرتعشُ بين يديها اللتين أطبقتا عليّ غير راغبتين في إفلاتي من جديد، تختلط دموعي بدموعها لينتج سائلٌ شفافٌ، لعلّه لو كان قد سقط على أي شيء صلب لأذابه، أو كائنٍ حيٍ لترك في جسده ثقبا باتساع الشوق والحزن والغربة!

بعد ثوانٍ.. بَدَتْ أيامًا وبدتْ لحظاتٍ.. دون ريّ أو شِبَع.. انفصلنا، انتزع أحدنا نفسه من الآخر انتزاعا، كنزع الروح، ونحن لا نصدق اللحظات الفائتة، ولا نحمل أي خريطة للحظات الآتية!

كان دوري لأنطق بأي شيء، فقلتُ لها وأنا أسحبها من يدها لندخل المقهى، ونجلس على مائدتنا القديمة نفسها:

- «وإنتي كمان»!

زادت فرحتنا عندما وجدنا رجلا عجوزا يتقدّم منا بابتسامة تتسع للكون كله، إنه «عم محمود» رفيق حياتنا الماضية، والشاهد على أدق تفاصيل العلاقة، وكأننا عُدنا شابين صغيرين نخطف بضع لحظات من يوم مثقل ومشحون، بالهروب إلى هنا وتناول مشروبنا المفضّل وسط الوجوه الطيبة والابتسامات التي لا تكف عن الارتسام على الوجوه المتعبة مهما حدث!

- حمدا لله على السلامة...بعودة الأيام.

- الله يسلمك يا عم محمود.

- شاي بلبن برضه؟

-أكيد.

بدا للحظة أنه لا حاجة بنا لكلام، فمجرد اتصال التيار الكهربي بين يدينا القابضتين على بعضهما، كافٍ تمامًا لنقل دفقات السيال العصبي من عقلي إلى عقلها.. إلى قلبها.. إلى روحها.. واختزال العمر الماضي وتلخيص كل أحداثه.. في ومضة.

لكن في اللحظة التالية، أدركت أن روحي عطشى للارتواء من موسيقى صوتها، وعيوني لهفى لإعادة شحن بطارياتها برؤياها وهي تحيا أمامي من جديد وتلتفت وتبتسم وتقطّب وتُناجي وتعيد خصلة من شعرها النافر لترقد في سلام على جبينها، وتضع يدها على فمها عندما تكون على وشك إطلاق ضحكة صاخبة.

كنتُ أفتّش عن أي كلمة تصلح لبدء حديث شائق، حديث مُخزَّن في السراديب البعيدة من سنوات، حديث يُقشّر البرودة التي غلّفت حياتنا التي انفلتت من بين أصابعنا فجأة، لكني - كالعادة- كنت أتوه في منتصف الطريق، فلا يتبقّى مني إلا اللهاث واللعثمة ولمعان العيون وحركة رأسي العصبية التي تحاول أن ترسو على بر!

بادرتني:

- حققت كام حلم من أحلامك بعدي؟

- وإيه قيمة أي حلم وإنتي مش فيه؟

ورغم أنها ابتسمتْ لكلماتي، فقد عكّرت سحابةٌ من الحزن صفو سعادتها، فأطرقتْ، وبدا أنها تُسلم قيادها لموج رقيق

يأخذهـا للـماضي الـذي ولّى، وبعـد ثـوان عـاودتْ الحديـث:

- اتجوزت؟

- ومين بعدِك يستحملني؟

ضحكتْ وقالت:

- أنـا بقـى لقيـت الـلي يسـتحملني، واتجوزتـه، لكـن أنـا الـلي مـا اسـتحملتوش، واتطلقـت بعدهـا بشـهرين!

- يعني إحنا الاتنين فاتنا القطر!

مـدّت يدهـا تعابـث النقـوش البـارزة المحفـورة في المائـدة، بينـما أسـألها السـؤال الأكثـر أهميـة بالنسـبة لي:

- سعيدة في حياتك؟

- آخـر مـرة كنـت فيهـا بنـي أدمـة قـوي، كانـت آخـر مـرة قابلتـك فيهـا، مـن غـير مـا أعـرف إنهـا هتكـون الأخـيرة!

- مش كان زماننا دلوقتي متجوزين وعندنا عيال؟

ابتسمتْ ابتسامة باهتة وقالتْ:

- مـين عـارف؟ مـش جايـز لـو كنـت اتجوزتـك.. كنـت إنـت كـمان طلقتنـي بعد شـهرين؟

- ده أنا كنت بحلم باليوم ده أكتر من إني أبقى رئيس جمهورية!

عـادت للابتسـام، بينـما تعلـو وجههـا حُمـرة الخجـل القديمـة، وهـي تتمتـم بكلـمات مبهمـة لم أتبـين منهـا شـيئا.

كنـت أريـد أن أتكلّـم معهـا عـن أي شيء وكل شيء، وبـدتْ هـي أكثـر لهفـة منـي عـلى معرفـة مـا أريـد أن أرويـه، ومـا أتـرك لعينيهـا

وحدهما فرصة معرفته دون تصريح، لكن مرة أخرى تخونني الكلمات، فلا تخرج مني إلا عبارات ساذجة بلا معنى، دون أن أتمكن من تكوين جملة مفيدة ومُشبعة!

ومضى الوقت، يحملنا معه عبر سنوات من الذكريات، في لحظات كانت ضحكاتنا تتعانق، وترتقي ذروة سماء لا تريد أن تهبط منها، وفي لحظات أخرى، يتفصّد العَرق فوق الجبين، وترتعش الأصابع، وتود دموعنا أن تفر من أسر المُقل!

وعبر ساعات عشنا حياة أخرى كاملة، حقيقية ومدهشة، ربما لم يكن مكتوبا لنا قبل هذه اللحظة أن نحصد كل الفرحة والامتلاء اللذين وجدناهما تحت جناحيها!

لم تكن لدي أي خطط للغد، ولا هي كذلك، لكن السباق الرهيب الذي خاضته عقارب الساعة، وانتهت به عند الحادية عشرة مساء، دفعها للتململ في مكانها، والنظر إلى شاشة الموبايل كل عشر ثوانٍ، فأدركت أن موعد تنفيذ حكم الإعدام قد أزف!

رغمي ورغمها، كان يجب إعادة غرس السكين في الجرح، وإهالة التراب على القلب النابض!

- هشوفك تاني؟

- مين عارف ممكن يحصل إيه بكره!

- هتوحشيني.

- وإنت كمان.

- يا ترى ممكن في يوم من الأيام إننا...

- إنت عارف إنه مستحيل!

قالتهـا في همـس وبحـروف متشـابكة وعليلـة، وكأنهـا لا تريـدني أن أسـمعها، أو لا تريـد هـي نفسـها أن تنطقهـا، بينـما كانـتْ تلملـم أشـياءها في وهـن، وتمـد يدهـا بحركـة متعجلـة لتحظـى بآخـر سـلام مـن يـدي.

وعندمـا ارتفعـتْ يـدي ولامسـتْ أطـراف أصابعهـا، لم تعـد بهـا أي قـوة للانخفـاض مـرة أخـرى والعـودة لقواعدهـا دون خسـائر فادحة، فتسـمّرتْ عـلى حالهـا، بينـما تمالكـتْ هـي نفسـها وانتزعـتْ يدهـا مـن يـدي، وأسرعـتْ بالفـرار قبـل أن تضعـف هـي الأخـرى، وهـي تقـول بصـوت خافـت متـألم ربـما كان صـوت روحهـا ذاتـه:

- مع السلامة يا بيشوي.

- مع السلامة يا فاطمة.

قمر مريض يضيء مساحة
لا تزيد على الشبرين

عندما شعر «الجبالي» بالحركة المُقلقة في الغرفة المجاورة، تصوّر أنه وهمٌ جديدٌ، السبب فيه الحُمّى التي تفتك برأسه، وتُريه ما لا عين رأت، منذ تسلّمتْ جسده وفرمته بجنازيرها منذ أكثر من أسبوع، فزفر وبالغ في إطباق جفنيه، لكن تكرار الأمر، جعله يتقلّب في سريره غير قادر على اجتلاب النوم الذي أوصى به «محسن» -طالب الطب الذي تبرّع بالكشف عليه مجانًا أمس- فنادى بصوت واهن -لم يسمعه هو نفسه- على زوجته، التي لم تُجب، فعادت سَكْرةُ التعب تجرّه إليها بألف ذراع، وتغيّبه عن الوعي بضع دقائق.

رأى نفسه يركب ظهر أسد، ويصعد به قمة شجرة، لكن القرود ظلت تأكل الموز وترميه بالقشر، حتى تعثّر الأسد وسقط وهو يزأر في غضب ويتوعد القرود والخنازير والتماسيح والكلاب الضالة والعساكر بالموت، وعندما همَّ بالقيام، سقط في فخ أحد الصيادين ومات، تاركًا إياه في جوف حفرة عميقة مليئة بحراب مسمومة، وأفاعٍ زاحفة نحوه، هذا غير ثمار جوز الهند التي راحت طيور سوداء ضخمة وغربان وبوم وحدادي تلقي بها فوق رأسه، فتتفجر، ناثرّة دخانا خانقًا وكثيفًا، لا يلبث أن يتحول بعد لحظة إلى عِصيّ وشوم وأحزمة جلدية عريضة، بمقدمات حديدية مسنونة، وجرادل مليئة بفضلات آدمية.

مرة أخرى يشدّهُ الصوت الذي ارتفع قليلاً، فتبيّن فيه أصواتًا مألوفة، وقرر أن ينهض، ليستطلع الأمر، وبالمرة يبلّ ريقه الجاف بشربة ماء.

بصعوبة وتؤدة وبحلاوة الروح والرغبة في تغيير النومة المتعبة،

يتكئ بكوعه على السرير، ويرفع جذعه، ثم يشدّه للخلف، ويستقيم راكنًا ظهره على الحائط الإسمنتي البارد.

سعل مرة أو اثنتين، قبل أن يرفع البطانية بصعوبة، ويقوم من تحتها، لم يجد «الشبشب» الذي اعتاد وضعه هناك، فسار نحو الباب ومد يده وفتحه ببطء، وخرج حافيًا.

الدنيا تهتز، وتظهر لعينيه بشكل مخالف لما اعتاد عليه، كم مرة نصحه صاحب الفرن ألا يُسرف في السهر أمام النار الموقدة، ثم يخرج فجأة لهواء الطريق، وكان يضحك منه ويقول: «حديد على حديد.. يفعل الله ما يريد»، وها هو الحديد اليوم يلين ويكاد ينقصف عمره!

يرتفع الصوت من جديد، فيتمكن من تحديد مصدره، غرفة ابنته «حياة»، البنت الوحيدة التي قَبِلَت أبوته، وجاءته على كَبر، بخطى وئيدة تتراجع أكثر مما تتقدم للأمام، مترنحة ومائلة، يسير متسندًا على الجدار والثلاجة والتسريحة.

هل ما زالت مستيقظة حتى الآن؟ وأين زوجته؟

يمد يده، ويفتح الباب بهدوء حتى لا يزعجها لو كانت نائمة، ومن فُرجة صغيرة، وعلى ضوء «الونّاسة» الخافت المتسلل من الصالة، يتأكد أنها لم تكن نائمة، وإنما تتمدد عارية تحت رجل، وبجوارها أمها تحت رجل آخر!

.....

في المدرسة، رفع يده ذات مرة، وضرب الواد «محمود» على الرغم من ضخامته التي يهابها كل العيال، لأنه تكلّم كلامًا لا يليق على الأَبْلَة، وعندما اشتكاه «محمود» للناظر، وادّعى أنه هو الذي تفوّه

بالألفاظ البذيئة، وصدّقه الناظر لأن أباه صاحب عمارات، ويتبرّع كثيرًا للمدرسة، قرر ألا يرجع الفصل مرة أخرى، واشتغل بالأجرة في غيط «أبو العلا».

ويوم جاءت شرطة المرافق وأمسكت بـ«أم خليل» وقلبت فَرْشتها التي تبيع عليها الأمشاط والفلايات والمناديل وجِلَد الحنفيات، تصدى لعساكر الدورية، وأكل علقة ساخنة، لم تُهمّه، وهو ينتزع منهم ما قدر عليه من البضاعة، ويُبصر على أن يأخذوه مكان الست الكبيرة التي تعول ستة أبناء.

وعندما شاهد الولد الجامعي الرقيع الذي يعمل في تكييس الخبز مساء، وقد زنق البنت المائعة «أحلام» بنت «المصيلحي»، في ركن مظلم من الفرن، نصف عارية، ضربهما ضربًا مبرحًا، ترك علامات حمراء وزرقاء في جسديهما، وأخبرهما أنه سيفضحهما، لكنه صان السر بشهامة، وإن لم يكف عن مراقبة البنت، وإرسال رسائل صامتة لها طوال الوقت.

.....

كانت زوجته تتأوه بصوت لم يسمعه منها في لحظاتهما الخاصة من قبل، والبنت ترد على أمها، بأصوات أعلى، وأكثر دربة، والسرير يئن من الحمل الثقيل، والضوء الواهن المتسلل من شق الباب يلقي بظلال كثيفة تجعل من الصعب تبيّن شخصية الرجلين.

تحسس «الجبالي» تجاعيد وجهه، فلسعته الحرارة المتوهجة، وعاد يدقق أكثر في تفاصيل مهملة، مموهة وغائبة في نصف ظلام، بنطلون جينز وآخر قماش وبادي أبيض وجاكت رجالي وبلوفر رخيص أسفل السرير، ملابس زوجته وابنته متكومة بلا ترتيب

فوق بعضهما في الركن الأيسر، يبدو أنهما خلعتاها في وقت واحد، ولاعة بلاستيكية على الترابيزة الصغيرة يمين السرير وعلبة سجائر كليوباترا ودبلة فضية واقعة بين الجدار والسرير.

.....

أول مرة يدخل السجن، عندما شدّه الصوت العالي للشباب الثائر المار من أمام الفرن، وهم يهتفون ضد الاعتداء على العراق، ترك العجين المختمر والزبائن وصوت المعلم «رؤبة»، واندفع معهم يهتف بسخط، ويُنفّس عن الغل المكبوت الذي يشعر به ضد الأمريكيين ولاد الكلب!

أحسّ بحرقة ورجفة وهو يهتف، فطفرت الدموع من عينيه، وبدا له هواء هذا الصباح مختلفًا عن غيره، وشمسه وناسُه وشوارعه التي بدت متسعة وقريبة، تحمل ألف وعد وحكاية وقصة تستحق أن يسمعها الناس بعد ألف سنة من الآن.

لكنه مع أول طلقة رصاص مطاطية، شعر بالخوف، وعندما اندفع الغاز المسيل للدموع كنافورة، تحصُد ماءَها من عيون المتظاهرين، قرر أن الوقت قد حان للانسحاب، لكن عدة أيادٍ ثقيلة ومدرّبة، امتدت إليه وسحبته من عنقه، فوجد نفسه في التخشيبة بصحبة العشرات ممن لا يعرفهم.

مرّ يومان دون أن ينفتح باب الزنزانة، أو يتسلل إليها ضوء الشمس، أو يسمع شيئًا سوى اللغط الدائر من حوله عن ضرورة الصمود والدفاع عن القضية، شعر بالجوع والعطش وتسلخ جلده من خشونة الأرض التي ينام عليها، واضطر لقضاء حاجته في الجردل الصدئ الذي امتلأ لآخره، وسال ماؤه على الأرض السوداء القذرة، ووصل للأقدام.

ثالث يوم، نادوا اسمه مع غيره، واقتادوهم للباشا -كما كانوا ينادونه- وبمجرد أن دخلوا من الباب، انهالت الشوم والعصي والأحزمة الجلدية على رؤوسهم وأعناقهم والأماكن الحساسة من أجسادهم. وسط غمامة من دخان سجائر فاخرة تعبق المكان، وخيط من عطر حريمي فاغم.

وبعد انتهاء الوجبة الدسمة، وخروجه بجرح قطعي في الوجه سوف يلازمه بقية حياته. سحبوهم من أقفيتهم مرة أخرى، وأعادوهم لزنزانة أكثر ضيقًا. تبدو لفرط رطوبتها وحرها تلافح وكأنها مبنية تحت الأرض!

حتى هذه اللحظة لم يكن قد تكلّم مع أحد، أو فهم أي شيء، وعندما همّ بقول شيء ما. رغم إنهاكه المدوّي والدموع التي تقاتل للفرار من عينيه. عاد الباب ينفتح من جديد، ويدخل عسكري خشن عملاق. تقدّم منه مباشرة. وأمسكه من رقبته، وصرخ: «عايزين تقلبوا نظام الحكم يا ولاد الكلب؟ ليه؟ البلد ما فيهاش رجالة؟»

وبحركة واحدة من يد العسكري -التي تشبه المخلب- مزّق سرواله وضربه فارتطم بالحائط وسقط بلا حراك، كان «الجبالي» فاقد النطق. يتنفس بصعوبة وبلا قدرة حقيقية على تحريك عضلة من جسده، والعملاق يتقدّم منه وفي عينيه نظرة تشف ووحشية. تتصاعد باستمرار، وهو يمزّق باقي ثيابه، ويلصق وجهه بالحائط. فيكسر أنفه، ويتلذذ بصراخه الذي لم ينقطع، حتى بعد أن تركه ينزف، وانتقل لغيره!

....

بعد ثلاثة أسابيع، نادوا اسمه مسبوقا بسُبّة بذيئة، ودخل

عسكري أسمر ممصوص، ضربه بالقلم على وجهه وبالرجل في بطنه، ثم أمسكه من ياقة جلبابه، وسحبه خلفه في عنف، كان المعلم «رؤبة» ينتظر في حجرة الباشا ووجهه شاحب، وما إن رآه حتى أخذه بالحضن، وربت كتفه، انتهت الإجراءات سريعًا، ووجد «الجبالي» نفسه حرًا، والباشا يقول له بسخرية: «اسكت.. مش طلعت مظلوم! يلا خيرها في غيرها بقى».

.....

عندما سمع أصواتا عالية تنبئ بمظاهرة جديدة تمر من أمام الفرن، أغلق أذنيه، واستدار لطاولة العجين، أخذ قطعة ضخمة أكبر مما تصلح لرغيف واحد وألقاها في الفرن، وجبينه يتصبب عرقًا، أقنع نفسه أنه من حرارة النار.

في الفجر، فوجئ بضربات هائلة على باب بيته، بكعوب بنادق كما تخيل، أتبعه سقوط الباب مهشمًا تحت وطأة أجساد تندفع بلا عدد نحو هدف واحد، عرفه عندما امتدت الأيدي من كل مكان وقبضت على رقبته، وأمام باشا جديد أوقفوه، وبعد عدة صفعات وركلات وإطفاء السجائر في جسده العاري، وشوي جلده بماء ساخن أحرق نصف ظهره، وجد نفسه يعود لنفس الزنزانة التي لم ينس تفاصيلها أبدًا، وعندما ظهر العسكري الخشن العملاق، مد «الجبالي» يده وخلع سرواله بنفسه، ووقف واضعًا وجهه في الحائط.

.....

اختلط الأمر على «الجبالي»، فلم يعرف هل الآهة العالية المباغتة التي لعلعت ثم انطفأت، ثم عادت في نغمة أكثر حدة، لزوجته أم لابنته، لكنه لاحظ سقوط الولاعة البلاستيكية من

على الترابيزة إثر رفسة عصبية من قدم ابنته، وهي -فيما يبدو- تصل لقمّة لذّتها.

تراجع «الجبالي» بظهره، وأغلق الفُرجة الصغيرة، محاذرًا أن يصدر عنه أدنى صوت، مشى مترنحًا، وفتح باب البيت، استقبلته الريح بإبر حادة وعشوائية، والقمر بنور باهت مريض، يضيء مساحة لا تزيد على الشبرين أمامه، تذكّر أغنية قديمة كانت أمه تغنّيها له، راح يدندن بها، ويهز رأسه مع الإيقاع، ويسرع من خطوته، وهو يسمع صوت باب يُغلق من خلفه في عنف.

الآخرون دائمًا

لم أكن أدري ما سيحدث في الثواني التالية، وأنا أمد يدي في حقيبتك المواربة.. المعلّقة على كتفك المرتخية، وأختلس المحفظة المتخمة وأضعها في جيبي، ثم أستغل الزحام والتلاحم، لأذوب وسط باقي الركاب، وأتحرك نحو الباب، وأنزل في أول محطة تقابلني.

تغيب ملامح وجهك المتعب بعد يوم عمل خانق باختفاء الأتوبيس مع غيره من السيارات الزاحفة عند آخر الشارع!

أتحسّس المحفظة في حنان.. وأمد يدي لأفتش عن صورة لك..

هذه صورتك وأنتِ في الكلية بالتأكيد.. الحجاب العصري الذي يُظهر أكثر مما يُخفي.. والبسمة الحالمة التي تبدو مرآة للقلب البريء.. والكتب التي فازت بلذة احتضانك لها وقربها من قلبك..

لماذا لم تشعري بي كل تلك السنوات؟

لماذا لم تري موضع خطواتي التي كانت تتبعك.. ولو لمرة واحدة؟

حتى عندما تجاسرتُ وتقدّمتُ إليكِ.. لم تري فيّ أكثر من مدرس بائس تجاوز حدوده وتطاول على «الست الدكتورة»!

أتلمس مواضع عينيك في الصورة..

هذه أكثر مرة اقتربتُ فيها منك.. ولكنك -كالعادة- لم تشعري بي..

أحتضن الصورة..هذا كل ما سيتبقي لي منك..

بعد أن يتم عقد قرانك على حضرة الضابط بعد يومين.

.....

لم أصارح ماما أو بابا.. ولا حتى أختي الكبيرة التي تعرف عني كل شيء..

كنت أريد أن أتأكد أولاً.. أنك تفكرين فيّ كما أفكر فيك..

أنك على استعداد لتلقي العقاب عني.. كما أفعل دائمًا عندما تتكلمين في الحصة.. ويهم الأستاذ بالالتفات إلى مكانك ومعاقبتك.. فأتحدث بصوتٍ عالٍ فجأة إلى زميلي.. فيلمحني الأستاذ ويُشبعني ضربًا!

وحتى عندما رأيت الولد السمين -الذي يأخذ مصروفًا أكثر منا جميعًا- يضع يده على كتفك ولا تردّيه.. لم أتسرّع وأفقد حبي لك..

ادعيتُ يومها أني لم أعمل «الواجب» حتى ينهالَ عليّ الأستاذ بعصاه الغليظة وأجد مبررًا للبكاء، دون أن يسألني أحد عن شيء..

وعندما خرجتُ من المدرسة.. أفقتُ فجأة لأجد نفسي في شارع غريب.. أول مرة أراه.. واستغرقتُ بعض الوقت لأفهم أني ضللت الطريق إلى منزلي!٤

في اليوم التالي..

كنت أنظر إليكِ.. وإليه.. وأحاول أن أجد سببًا!

فهـو لم يكـن متفوقًـا مثـلي.. ولا يلعـب الكـرة بمهـارتي.. ولا يجيـد إلقـاء القصـص والحكايـات.. ولا يصنـع لـك قـوس قـزح مـن الصلصـال، ولا حتـى يملـك خطًـا أنيقًـا كخطـي.. كثـيرًا مـا أعجبـك وأنـا أكتـب بـه اسـمك عـلى السـبورة والحائـط وكل المقاعـد في الفصـل!

يـوم إعـلان النتيجـة... تجمّـع الطـلاب والمدرسـون وأوليـاء الأمـور في حـوش المدرسـة... وحـدك كنـتِ غائبـة... والولـد السـمين كذلـك..

تسللتُ لدورة المياه.. فوجدتُك هناك.. كما توقعتُ!

تمنحـين يـده الجائـرة سـلطاتٍ لا حـصر لهـا.. في حـين يـكاد جسـدك الرقيـق يتهشـم وهـو يعتـصرك بـين جسـده والحائـط في وحشـية...

في هـذا اليـوم لم يكـن بي حاجـة لعصـا الأسـتاذ حتـى أندفـع في بـكاء متواصـل.. لم ينقطـع حتـى اليـوم!

عندما تلتقون مساء

لم تصدّقه وهو يُخبرك أنّه لا يجيد العوم، وكيف تفعل وهو ابن أَشْهَر سبّاح في مصر؟!

تسحبه من رجليه ناحية البحر.. جسده يترك علامات غائرة على رمل الشاطئ المزدحم، وعيونه تتابع حركتك التالية بخوف.. يتحرك بعشوائية ويقاومك بشدة من حين لآخر حتى يتعب.. ويصرخ صرخات متقطعة فَزِعة في الوقت الذي تكلّ فيه قوته.

تشعر بإعجاب شديد نحوه، فهو يؤدي الدور الذي يُريد سَبْكه عليك ببراعة.. لكنك -مهما فعل- لن تترك له الفرصة ليضحك عليك أمام كل الشلة، عندما تلتقون مساءً.

قناديل بحر ميتة ومنكفئة على وجوهها في أيدي أطفال يغرسون في لحمها المرتخي أدوات بحر بلاستيكية رخيصة، مدفونة أسفل قصور رملية هشة، يذيبها مدّ أول موجة متوسطة القوة، ويعيد ذراتها للبحر أولُ جَذر، باعة جائلون وأصوات متداخلة على خلفية هدير متعاظم.

يمدّ يده ليتمسك بقاعدة متآكلة لشمسية نصف موارية، فتضربه في جنبه برفق، وتضحك وتقول له:

- «برضه مش هسيبك».

بعض الوجوه تراقب في تراخٍ، وفتيات يتغامزن في مرح، وطفل صغير يرتدي شورتًا وفانلة أسودين، يمد يده الصغيرة، ويحاول أن يُنجده، فتهمس له بمرح:

- «ماتخافش.. أنا هغرّقه بس»!

البحر، وبدايات ملامسة مجسّاته لجسده، أفزعته، وجعلته يطلق صرخة مدوّية -كادت تثنيك عن عزمك- وينشب أظفاره في لحم ذراعك، ويقسم لك أنه لم يتعلّم العوم.

تزداد عنادًا، وتتحمل الألم، تواصل سحبه في إصرار، شمس حارقة، ورذاذ مالح، وقطع كرتون وأكياس بلاستيكية سوداء تطفو على سطح الماء الذي لم تره عكرًا هكذا من قبل..

يبدو أصدقاؤك آتين نحوك من بعيد، وهم يلّوحون بأيديهم في إشارات لم تفهمها، ترفع لهم يدك بتحية منتصرة، غرضها أن يكونوا شهودًا على تفوقك، ثم تعيد إطباقها في سرعة على رجله التي تيبّستْ في يدك، وتدخل به نحو الأعمق، بعد الصخرة -التي يسمونها الجزيرة- في أعمق مكان يمكنك الوصول إليه، تحرّر قدمه، وترفعه من وسطه، ثم تتركه في الموج الهادر، وأنت تصرخ ليسمعك:

- «ورّيني نفسك بقى يا بطل».

تُسرع بالفرار مراوغًا قبضة يده التي امتدت لتطول أي جزء من جسدك، تترك الشمس خلفك، والصخرة، وجبال الماء، وصرخاته، وتشتد في سباحتك، لتصل الشاطئ قبله، وتضحك -بينك وبين نفسك- كلّما تخيّلت منظره وغيظه واحمرار وجهه الطفولي.. عندما يضطر للاعتراف بهزيمتك له أمام الشلة.. عندما تلتقون مساءً.

من أجل العشيرة

تعرفتُ إليها تحت طرف قطعة خبز بائتة، في آخر الموسم، وتباشير الشتاء تدب إلينا على عجل، كانت تتكلم بلا انقطاع، وتجذب بكل قواها، في حين لا تكف عن الابتسام، والحديث عن اللحظة التي تقرر فيها ترك الخلية، واستكشاف حياة جديدة، على الرغم من تحذيرات عشيرتها وخوفهم عليها، في حين كنتُ ألتقط أنفاسي بصعوبة، وأُصغي لها بنصف أذن، ونصف فهم، وأحاول قدر طاقتي ألا أُظهر الضعف الشديد الذي انتابني هذا اليوم بالذات.

جاءت واحدة، وواحدة أخرى، وتعاوننا جميعًا حتى بدأتْ القطعةُ الصغيرة تتزحزح أخيرًا.

فاجأنا تحذير مباغت من كشّافينا، وحركة حامية ومرتّبة للانسحاب، والجميع يسرع بالاختباء وترك ما بأيديهم من غنائم..

إلا هي...

اتخذتْ وضع الفرار للحظة، ثم لم تلبث أن تسمّرتْ في مكانها فجأة، نظرتْ للمعتدي الغافل، بكبرياء، وتشبثت بقطعة الخبز أكثر..

كنا نعلم ما سيحدث..

وبدأتُ في سِرّي أُعدّ الكلمات التي سأتلوها في عزائها عن مدى شجاعتها واستماتتها من أجل العشيرة..

لكن المفاجأة أن الطفل الضخم الذي يلعب، غيّر اتجاهه فجأة متابعًا كُرتِه الصغيرة المتدحرجة، وبدلاً من أن يدوس عليها، داس

علينا جميعًا، وتناثرتْ الجثث في كل مكان..

وحدها كانت بعزيمة -ورغم دموع حزنها علينا- تسحب قطعة الخبز البائتة، وتصر على المضي بها للأمام.

بطاقة ممتلئة

لم أفهم أبدًا للوهلة الأولى، أن إقبالك عليّ، وتبسّمك في وجهي، دونًا عن كل السائرين في الشارع الطويل المزدحم، بعد طول مطاردة عيني لعينيكِ، في البلكونة والشارع والمترو وأمام المحل الذي تبيعين فيه أدوات الماكياج الرخيصة، كان من أجل الحصول على دقيقة من محمولي، لأن رصيدك قد انتهى!

وعندما أعطيتك الموبايل كتمثال، تمنيت -لأول مرة- أن أسمع الرسالة المُسجّلة السخيفة «لقد نفد رصيدكم..يرجى إعادة شحن البطاقة».. لكن الصوت الذي هدر عبر الإسبيكر المفتوح خذلني تمامًا:

- «خلاص يا حبيبتي.. كلها ثواني وأحصلك ع الكافيه»!

عصفورة زرقاء

زارنا الموت أمس.

تشمم رؤوسنا جميعا ونحن نائمون، ثم انتزع روح عصفور «ملك» الأزرق الطيب ومضى.

جميعنا كنا أهدافا محتملة واهية بين نابيه، لكن يبدو أن في العمر بقية !

أهيلُ التراب على الجسد النحيل في التربة أمام شباك ملك، كي يكمل مهمته في رعايتها - كما تظن - من العالم الآخر، فيما رفيقته في القفص تنوح بصوت خافت وتعزف عن الطعام.

العصفورة التي تحمل الآن وجه أمي عندما مات أبي، ووجه أختي عندما ماتت ابنتها، تبادلتْ معي نظرة طويلة، قبل أن أفتح لها الباب وأمنحها حريتها كاملة، لكنها ترمق العالم خارجا بنظرة غير مكترثة، قبل أن تطوي جناحيها أكثر كأنما تغوص فيهما، وتدير ظهرها لي وتكفّ عن الفعل.

الدَرَقة

عندما رفضتُ في البداية مساواتي ببقية الموظَّفين، وتحجّجت بأن وضعي مختلف، أخبرني المدير أن هذا إجراءٌ روتينيٌ، وبالطبع لن أكون مثل غيري، نظرًا لأنني أحمل رتبة «سنيور»، ومِن ثمّ فسوف يكون لونُ سُلحفاتي مختلفًا ومميزًا.

لم أُرِد أن أكون الشريك المخالف على طول الخط، كما أن الإصرار الذي لمحتُه في عينيه جعلني أرضخ في النهاية، مُمنّيا النفسَ أن يكون الأمر كله نزوةً جديدةً من نزواته، لن تلبث أن تنقشع مثل غيرها!

جاء المهندس وأخذ مقاساتي بعناية، ثم غاب بضع ساعات، وقبل نهاية اليوم ارتفعت دقّاته المُهذّبة على باب حجرتي، ودخل بصحبة رجلين من رجاله، وتعاون الجميع على إلباسي سلحفاتي الجديدة!

بدا الأمر مُضحكا للوهلة الأولى، وأنا أحمل فوق ظهري هذه الدَرَقة العملاقة وأُحدّق في مرآة الحمَّام، وفكرت أن السلحفاة مسكينة حقا، لاضطرارها للمكوث فيها طوال عمرها!

عندما خرجتُ من الحمَّام حاولتُ أن أظل فاردًا طولي، إلا أنني فُوجئتُ بجسدي يتهاوى أرضًا -رغمًا عني- مِن ثقل الدَرَقة وإصرارها على خذلان جسدي ودفعه للانحناء، لم يكن الوضع سيئًا كما تصوّرت، فقط كان يحتاج لبعض التعوّد والمران قبل أن يصبح شيئًا طبيعيًا.

فكّرت أنني بحاجة الآن لتركيب حذاء في يديّ أيضًا، حتى لا تتسخا من الاحتكاك المستمر بالأرض، ربما أحتاج كذلك لتدعيم ركبتيّ بقماش إضافي، كي لا يبلى البنطلون في هذه المنطقة وحدها، وأضطر لتغييره كل فترة!

الجميل في الأمر أن الدَرَقة تُغطّي وسطي كله، هذا يعني أنني لست في حاجة لتغيير قميصي كل يوم، وربما أستغني كذلك عن رابطة العنق السخيفة، مما سيجعلني أتحرّر أخيرًا.

في الطُرقة قابلت مُديري، كانت دَرَقته لامعة وبراقة ومختلفة عن درقات بقية الموظفين، طبعا فهو مليونير ولن يبخل على نفسه بكل ما هو أنيق ولافت للنظر، ألقى عليّ التحية بمودّة زائدة، وسألني عن رأيي في سُلحفاتي الجديدة، وانطلق مسرعًا على أربع قبل أن يسمع إجابتي.

«نشوى» كانت تبدو مثيرة للغاية في دَرَقتها وهي تتهادى أمامي على أربع، وتتعمد هز جسدها -كعادتها- لجذب انتباهي، الحقيقة أنني شعرت اليوم أنه لا مانع لديَّ على الإطلاق من الاستجابة لها، فحككت دَرَقتي في درقتها بخفّة، وأنا أُوقّع لها ورقة الإجازة، على وعد بما هو أكثر في الأيام القادمة.

في الشارع، ابتعتُ سجائر ولبانا من السوبرماركت القريب، وجدتُ صعوبة في إخراج النقود، فمدّ البائع الملول يده في جيبي وأخذ عشرين جنيها، وضعها في الكاشير وأعاد لي ملاليم قليلة.

استوقفت تاكسيًا، وصعدتُ للمقعد الخلفي في تؤدة، ورقدت على يديّ وركبتيّ مُقوّسا ظهري لأعلى، وهو ما أثار ضيق السائق لأنه منعه من استضافة راكب آخر إلى جواري ومضاعفة أجرته، فأخذ يسابق السيارات في تهوّر أملاً في الانتهاء من مشواري سريعا لتعويض خسارته!

استجابتْ زوجتي لركلاتي العديدة على باب الشقة، بعد أن أصبح الجرس عاليًا للغاية ولا يمكنني استخدامه، نظرتْ نحوي لثوانٍ قبل أن تقول لي «الأكل على السفرة»، وتعاود وضع ساعات

الموبايل في أذنيها وتختفي في أعماق الشقة.

عافتْ نفسي اللحم والخضار المطبوخ الذي وجدته على المائدة، وسعيتُ نحو الثلاجة، فانتقيتُ لنفسي بضع حبّات من الخيار والجزر والطماطم، لم أُطق صبرًا حتى أغسلها، فأكلتها في نهم كما هي، بينما أسير نحو غرفتي.

بعد محاولاتٍ عديدة واختبار عدة أوضاع، لم يُرحني الفِراش، فهبطتُ على الأرض، ورقدتُ على بطني، واستمتعتُ بفرد طولي لآخره، قبل أن أدرك أنه بإمكاني سحب رأسي وقدميّ ليكونا معي داخل الدَرَقة، كان شعورًا رائعًا وأنا أتكوّر بكاملي داخل الدَرَقة وأشعر بالاحتواء والدفء. فنمت نومًا عميقًا لم أجرّبه منذ سنوات!

بعد يومين أو ثلاثة لم أعد أشعر أنني أحمل شيئًا على ظهري، أصبح الأمر عاديًا لدرجة لا تكاد تُلحظ، وفي اليوم الذي صرخ فيه مديري في وجهي وجدتُ نفسي أسحب رأسي فجأة وأختفي به داخل الدَرَقة، مما جعل سُبَابه يتجاوزني مسرعًا ويرتطم بالحائط خلفي فيسقط متكسِّرا على الأرض دون أن يطالني.

وفي المرة التي استوقفني فيها البلطجي عصبي المزاج، في عز النهار والبشر سادرون من حولي، وطالبني بإخراج ما معي، تكوَّرت فجأة بكاملي داخل الدَرَقة، وتركته واقفًا مثل الأهبل يتحايل عليّ حتى أخرج لكي يسرقني.

ومنذ يومين أخبرت زوجتي أنها لا بدَّ أن تُركِّب دَرَقة هي الأخرى، وصارحتها أنها لم تعد تُثيرني بمظهرها المشوَّه هذا، وأن العِشرة وحدها هي التي تفرض عليّ تنبيهها لعيوبها حتى تُصلحها، فلا أجد نفسي مُضطرًا لهجرها، أو الارتباط بغيرها،

خاصة -وهذا ما لم أقله لها- أن علاقتي بـ«نشوى» أصبحت أكثر حميمية هذه الأيام.

مریم

استيقظتُ على صوتِها ينساب عبر الهاتف، أحسستُ أنني موشك على أن أُرْزَقَه قبل أن تتصل فعليًا، فانتبهتْ حواسي في الحلم وتركتْ ما في يدها وأصبحتْ تترقب.

وعكس ما يحدث عادةً عندما أسمع جرس الموبايل وأنا غافٍ، فأُمعن في النوم أكثر، بمجرّد أن رنّتْ نغمتُها، امتدت يدٌ حانية مجهولة لتُجلسني على الفراش وتنقلني إلى يقظة كاملة.

- آلُو؟

- أيون يا فندم.

- لسّه نايم؟

- البتّة.

- يلا بينا.

- هنتقابل فين؟

- العتبة، هستناك في محطة المترو.

- اتفقنا.

ورغم ما تمثّله طقوس الصباح بالنسبة لي من مشقةً بالغة دائمًا، إذ أحاول إقناع نفسي أنني استيقظت وقُضي الأمر، وعليّ أن أبدأ يومي المرهق، دون أن أجذب الغطاء فوقي ثانية لأحظى بدقائق من الغيبوبة، عادة ما تمتد لساعة أو أكثر، وتضيع عليّ جميع مواعيدي! اليوم، كنتُ خفيفا ونشيطًا، وسار كل شيء بسلاسة، الكون كله -فيما يبدو- كان يتآمر لإهدائي مساحة من البراح:

ارتداء الملابس، الحذاء، تصفيف الشعر، النزول من البيت،

البشر في الشوارع، الميكروباص، المترو.. كل شيء كان يمضي أمام عيني بسرعة وبلا تركيز، مجرد لقطات تعبر بسرعة أمام شبكيتي، فلا أكاد أميزها. هناك قطعٌ حدث في المشهد بعد أن سمعتُ آخر كلمة منها، لن يتصل سوى برؤيتها مرة أخرى، وكل ما بين اللقطتين: ظلٌ باهتٌ لازم لإظهار معالم الصورة الكلية فحسب، لكنه لا يحمل أي معنى في ذاته!

توقف المترو، وجرفني الساعون للخروج من جوفه، حتى وجدتُ نفسي في حضرتها

ابتسامتها تسبق كلامها. وبدها تتقدم جسمها لتتصل بيدي، فتعيد وصلَ ما انقطع. وتشعيل جميع حواسي مرة أخرى!

كنتُ سعيدًا بالعثور على صوتي أخيرًا وأنا أهمس:

- وحشتيني.

تتحول ابتسامتها لضحكة رقيقة، تنير وجهها كله، فألتقطها بحرص وأضعها فوق رفوف الذاكرة. وأتأكد من تسكينها في مكان بارز، كي أستعيدها مرات فيما بعد، وأحيي بها ليلي، وأصل ما انقطع من مودة بيني وبين البهجة.

السير جوارها في الطريق لا يزال أمرًا مدهشًا بالنسبة لي، فكيف -رغم مئات التفاصيل- لا يعود هناك أحد سوانا، لا العربات ولا الأرصفة ولا الشجر ولا العابرين ولا الأصوات؟!

فقط نحن، وخلفنا فراغ وأمامنا فراغ، نشق الطريق فنُضفي بعض الحياة على ما تقع عليه أعيننا، ولا يلبث أن يفقدها ويعود جمادًا ساكنا بمجرّد تحوّلنا عنه!

حبّات من المطر الرقيق بدأت في النزول على استحياء من سماء

ملبّدة، بدت كقبلات خاطفة من فم عاشق على خدّ معشوقه.

أخبرتها أن اليوم مِلكٌ لها، لتفعل به ما تشاء، فاختارت القاهرة الفاطمية.

من أمام المترو، ركبنا «تمناية» وسكنتْ كتفي جوار كتفها دقائق، لأغرق في نعيم حديثها. لم يكن مهمّا ما تتحدّث فيه على الإطلاق، وإنما أن تظل سادرة في الكلام، عن الطقس، المواصلات، بلح الشام، بطوط. تتكاثف حروفها أمام عيني، على هيئة شجرة، متمايلة الأغصان، أمد يدي لأقطف ما شاء لي الهوى من ثمارها، فأشبع، وأمتلئ، ولا تنقص منها ثمرة واحدة!

في ميدان الأوبرا القديم نزلنا، وتجاورنا ونحن نعبر الطريق إلى الناحية الأخرى، حيث بداية شارع المعزّ، تناهى لسمعي صوت ثلاث خطوات على إسفلت الشارع التاريخي. بدت كالضربات التي كانت العروض المسرحية القديمة لا تبدأ إلا بها، ويعقبها ظهور الممثلين.

بدأنا بمسجد الناصر محمد بن قلاوون، تجوّلنا في الصحن المكشوف، حيث كانت تحيط به أربعة إيوانات، لم يبق منها الآن غير اثنين: إيوان القبلة والإيوان المقابل له، في حين تم تخريب الإيوانين الآخرين، وحلّت محلّهما أبنية حديثة، لم تزد على أن كشفت عظمة الماضي، وقبح الحاضر!

شعرتُ بروحي تخفّ، وعقلي يدور، وأنا أتأمّل أحد عامودي المحراب الرخاميين الرائعين، وطاقيته ذات الزخارف الجصيّة البارزة، وحين وقفتُ أمامه، تتحسّس التفاصيل بيدها، وتبتسم كأنما تتلقّى رسائل الآلاف الذين سبقوها وائتمنوا العامود على أسرارهم وأمنياتهم وأشواقهم ودعائهم ومناجاتهم، تكاملتُ

الروعة، والخلد جمال الحي بجمال الميت، فصنع صورة عابرة للزمن، أسرعتُ أسجّلها بعدسة الكاميرا في يدي

كنتُ أتأمل ملامحها، وأغرق في كل تفصيلة على حدة، فأتمهل عند العيون المتسعة التي تبدو أنها رأت أكثر مما ينبغي، وصولا للأنف الشامخ المنحوت بعظمة، قبل أن أنحدر للفم الدقيق المنمنم، وأغرق في الغمازتين الناعمتين.

بالتأكيد لم تكن أول من طرق أبواب القلب، وحاول سكناه، سبقتها كثيرات، وفي كل مرة كنت أنقي بقدمي وذراعي وأجرب، وأنا أمني النفس أن تكون هي، معهن كنت أشعر بالسعادة، لكن ليس الامتلاء والرضا، دائما كان هناك شيء ناقص، حرف في كلمة ليتمّ المعنى، حضور في وصفة لتستقيم على أكمل وجه، رمز في معادلة لتحويل النحاس إلى ذهب، الآن، أعرف ما كان ينقصني، وإن لم أدركه أبدًا قبلها، كان ينقصني اتصال القلب بالقلب وسكن الروح إلى الروح، كان ينقصني «مريم»

أرادت «مريم» أن تُكرمني، وتُضيف نِعمة أخرى إلى رصيدي اليوم، فمنحتني يدها بينما تقفز من فوق كوم حجارة مباغت، فشعرتُ بالامتنان للعظيم الذي وضع هذه الحجارة في طريقنا، وتمنيتُ أن يتحوّل العالم كله لأكوام حجارة، تستدعي يدي كي تتمكن «مريم» من عبورها.

مقابل الجامع جلسنا نلتقط أنفاسنا.

أولاد وبنات يسيرون متجاورين، الكاميرات في الأيدي والضحكات في العيون ونثارات الحديث تحوّم ناقلة من كل بستان زهرة، سياسة ودينا وحبا وخناقا وصلحا وتاريخا ووعودا، خلية نحل تزيد باستمرار، ومشاعر تتسع للعالم أجمع، وأصوات الباعة

إطار عام يظلل الجميع.

بينما تُسند ظهرها لباب أثري جلسنا أمامه، حدّثتني عن نفسها، والرحلة الطويلة التي قطعتها كي تحظى باستقلالية تمنّتها طويلا، ودفعتْ في مقابلها كل ما تطلّبه الأمر، ولا تزال تسعى لإكمالها ببدء حياة جديدة خارج مصر. ارتجف قلبي وأنا أسألها:

- ليه بره مصر؟

- عايزة ألف الدنيا، أشوف، صحيح أنا نلت ثقتهم أخيرا في البيت، بس وقت الجد، كل ده هيتبخّر، عايزة أختبر نفسي في أقصى الظروف، وأشوف هعمل إيه، رب هنا رب هناك.

تكوّنت غصة في حلقي، قاومتها بصعوبة ونحن نستأنف المسير. أمام جامع الحاكم بأمر الله، وقفنا، والتقت أعيننا في نفس اللحظة.. «لندخل».

بعد السلالم، وجدنا الطريق المبسوط أمام مدّ البصر مليئا بحبّات المطر، ضحكتْ وهي تخبرني أن حظي «بمب»، وأننا لا بدَّ أن نخلع الأحذية والجوارب كي نعبر للضفة الأخرى، وأعقبتْ كلامها بالجلوس فورًا، في حين ترددتُ قليلا قبل أن أتشجّع برؤية الآخرين يفعلونها، وسط ضحكاتنا والرعشة التي تلبّستنا، كانت تقول في مرح:

- ربنا يستر وما تجيلناش قضمة صقيع!

بهدوء، خشية أن نتزحلق، وسط الرجفة المحببة رغم كل شيء، والتعليقات التي لا تنتهي، كنا نتحرك للأمام، وشعور الراحة المطلق يلفّ القلب.

فبراير العظيم يرتكب معنا جريمة حرب كاملة، ويرسل كل

ذرات البرد التي خلقها الله، كي ترافقنا في رحلة الأمتار الخمسين حتى سجاد المسجد، والحمائم تتحرك حولنا كأنها تحرسنا، وتلقّط حبا غامضًا يبدو مبدورًا في كل مكان.

نحن الآن في منتصف المسجد تقريبًا، شهيق عميق مع فرد الذراعين كالطاحونة، السماء أبدٌ أزرق ساحر من فوقنا، كان الله محقًا عندما اختارها سكنًا، فليس مثلها يليق بعظمته!

عندما بلغنا السجاد، ووضعنا أقدامنا عليه أخيرًا، كنّا كمن سكن طوق نجاة وسط موج هادر، فاطمأن قليلا.

انتهتْ صلاة الظهر منذ قليل، وتكوّنت جماعات صغيرة لا تزيد على ثلاثة أو أربعة أفراد، جلسنا لالتقاط الأنفاس، قبل أن نصلّي، ونعود للجلوس متجاورين في أحد الأركان.

تكلّمنا كثيرًا، وضحكنا أكثر. كنا نشعر بالأمان في رحاب الله، وبأنه لا شيء في الدنيا بأكملها يمكن أن يعكّر صفو هذه اللحظة التي بدت مقطوفة من عنقود بهجة خالصة.

راحت تتأمل الحمائم، وتشير كطفلة للفروق بينها، هذه حمامة أمٌ لأنها تحابي على الأخرى التي يبدو كأنها تتعلم الطيران لا تزال، وهذه الرمادية هناك ربما تعمل حارسا في قسم شرطة الحمام، لأنها تنظر يمينا ويسارا كل ثانية!

أخذنا كفايتنا من الرحمة المبثوثة في المكان، قبل أن ننهض، ونتحرك نحو الباب، كادت تنزلق، فأسرعت تتكئ عليّ، كان ليدها الآن ملمسٌ جديدٌ، يختلف عن ملمسها في الصباح. هذه أول فتاة فيما أعرف يتغير مذاق يدها طوال اليوم، ليتناسب مع حالتها المزاجية، الآن كانت بنكهة الرضا!

امتدّ بنا المسير، وبالقرب من الأزهر، في حضن عشرات الآثار الإسلامية، وقفنا أمام بيت «الست وسيلة» الأثري، المبني في العصر العثماني، دخلنا القاعة الرئيسية في الطابق الأرضي، لنجد إيوانين مرتفعين عن الأرض، بينهما نافورة على عمق ٩٠ سنتيمترا تقريبًا، اكتُشفَتْ مؤخّرا، فوقها فانوس خشبي مفرّغ لإنارة المكان -«شخشيخة»- بينما تتناثر في القاعة مجموعة من «المغاني»، وهي أماكن كانت النساء تجلس فيها للاستماع للمغنين.

رحنا نحدّق في الأسقف العالية، والمكان المضاء بأكمله دون الحاجة لأنوار صناعية، والحجرات الواسعة الموزّعة بشكل عجيب، حتى لتفاجأ بأن وراء هذا السلم أو الجدار غرفة أخرى لم تتوقّعها. علّقتْ وهي تتحسّس الجدران بشغف:

- نفسي أسكن في بيت كده، ما نلاقيش بعض فيه!

قبل أن تشير بيدها فجأة إلى ذرّات التراب التي بهرها الضوء، فصنع منها عمودا طويلا يلف ويدور حول نفسه، في معراج لا ينتهي:

- تعرف؟ دايما بتخيّل إن التراب ده بني أدمين: ناس كانوا عايشين في أزمان غابرة، وده اللي فضل منهم، تخيل بقى لو قدرنا نستحضرهم، هيقولوا لنا إيه عن اللي شافوه!

كانت تعتقد أنه لا أحد يموت بالشكل الذي نتصوره، وإنما يتحوّل إلى صورة أخرى، ويعود إلى الحياة من جديد، بشكل يتناسب مع ما سبق أن قدّم في فترته الأولى، وهي نفسها كانت تتفرح إن عادت، أن تكون شجرة!

كنت أضحك وأنا أسألها عن سر اختيارها، فتقول:

- الشجرة، ثبات، ما حدش بيكلّمها ولا بتكلّم حد. منها للسما مباشرة، مأوى للطيور، وظل للإنسان، وملهاش أي مطامع في دنيا البني أدمين الفانية.

عدنا إلى شارع المعز، ومنه عبر شارع الدرب الأصفر، مرورًا ببيت السحيمي، وصولا إلى حي الجمالية. جلسنا على مقهى شعبي مزدحم، لَمَحَنَا القهوجي، فاختار لنا ركنًا قصيًا محميًا بقطعة قماش كبيرة، تلعب دور مصدّ الهواء. طلبتْ شايا في «الخمسينة»، سكر «برّه»، فطلبتُ مثلها.

اشتدتْ لفحة البرد، وصاحبها صفير الريح، مع قرب مغيب الشمس، وبدء بعض العواميد في إنارة مصابيحها.

نقبض على أكواب الشاي في امتنان حقيقي مستمرئين الدفء الوقتي الذي تمنحه لنا، مع تصاعد رائحتها المختلطة بالنعناع. أصوات الباعة تشتبك مع حركة السيارات في الشارع الضيق، قبل أن تهلّ علينا من بعيد أصوات صاخبة للضرب برتابة على الطبلة، تصاحبها ابتهالات منشدين يذوبون في حب الله والرسول، ففي الأجواء تحوّم الاحتفالات بمولد «سيدنا الحسين».

ازدحم الشارع فجأة بالمدّاحين، تتقدمهم الأعلام، والطبول، والأطفال الصغار، والرجال الذين يرتدون الأوشحة ويتمايلون على وقع الموسيقى مرددين في انسجام مدائح نبوية تذيب القلب رقة وتدفع الدمع إلى المآقي.

كان مشهدًا مهيبًا، وقفنا له وصفقنا بأيدينا وتمايلنا برؤوسنا، بينما نلتقط الصور وهم يمرقون كطيف في طريقهم للمشهد الحسيني، حيث يلتحمون بمئات الساهرين، استعدادا لليلة الكبيرة.

كالعادة، كان لديها ما تضيفه، أخبرتني عن الليلة التي قصدت فيها حلقة للذكر، وأصرّت أن تصاحب الذاكرين، رغم استنكارهم وجود امرأة بينهم، وبينما تغرق في السر الصوفي، اكتشفت أنهم محجوبون عن نور الحق، لأنهم مدّعون، يتعلقون بالمظهر دون الجوهر، ويدورون في دائرة مفرغة قوامها الموسيقى والبخور دون الإحساس الحقيقي بلحظة وصل مع إله يعلم السر وأخفى.

جنّ الليل، وأسدل ستوره. أخبرتني -وأنا لا أريد أن أصدق- أننا لا بدّ أن نتحرك.

قمتُ من مكاني مثقلا، كلُّ الفرحة التي حصدتها اليوم لم تقو على الصمود أمام لحظة الخروج من الجنة. كنت أماطل وأسير بتؤدة أملا في اقتطاف لحظات أخرى بصحبتها، وكانت تدرك محاولاتي جيدا، فتضحك، وتشدني من يدي، وتخبرني أن أمدّ الخطو قليلا.

أمام المترو، بدا أن الرحلة أوشكت على الانتهاء. مُضطرا، مددتُ يدي كي أنال نفحة أخيرة.

في اتصال اليد باليد تقوم عوالم وتُكتشَفُ مجرّات وتُولد نجوم، وفي لقاء العين بالعين، تُغيّرُ الشمس عادتها الأزلية، وتلف وتدور حول الأرض، كي تحظى بطلة أخيرة على المعجزة الربانية التي تجري أمامها الآن.

نبّهتني أن يدها ظلت بين يدي فترة طويلة بابتسامة أخيرة.

أفلتّها، كمن يُفلت طوق نجاته في خضم بحر هائج لا يُرجى الخروج منه سالما، وتركتها تمضي -كالأحمق- دون أن أدري أنها آخر مرة أراها فيها!

عن الكاتب

- رئيس تحرير موقع اكتب صح com.www.ektebsav
- تخرج في كلية التربية، جامعة المنصورة، قسم اللغة العربية، عام٢٠٠١.
- عضو اتّحاد الكتاب المصري.
- مدرّب بأكاديمية أونا الإعلامية.
- مدرّب بأكاديمية التليفزيون الألماني في مصر دويتشه فيله.
- حاضر في: جامعة زويل، الجامعة البريطانية، جامعة القاهرة، ومواقع: إعلام دوت أورج، دوت مصر، مبتدا، سوبر ماما، والعديد من المبادرات الشبابية، وأقام ورش عمل في: القاهرة، المحلة الكبرى، المنصورة، الإسكندرية.
- عمل مساعدًا لرئيس تحرير موقع «الأهم» التابع لمؤسسة التحرير.
- عمل رئيسا للديسك المركزي بموقع مبتدا.
- عمل رئيسًا لوحدة ديسك الحياة بموقع دوت مصر
- عمل مسؤولا للديسك المركزي بموقع جريدة الاتحاد الإماراتية.
- مسؤول المراجعة اللغوية لمطبوعات منظّمة العمل الدولية في مصر.
- أشرف على تحرير صفحتي "السلم" في العدد الأسبوعي من جريدة التحرير.
- أشرف على تحرير صفحة "في الغميق" المتخصصة في التنمية البشرية، بجريدة الدستور.

صدر له:

١. لدي الكثير جدا لأقوله لكِ، مقالات، دار تشكيل.

٢. بتوقيت القاهرة، رواية، دار دوّن.

٣. جر شكل، ساخر، دار المصري.

٤. اللحاق بآخر عربة في القطار، قصص، دار اكتب.

٥. يوميات مدرس في الأرياف، ساخر، دار اكتب.

٦. من غلبي، ساخر، دار كيان.

٧. قراءة في كف الحب، أدب رسائل، دار أجيال.

٨. لولا وجود الحب، أدب رسائل، دار أجيال.

٩. نعيق الغراب، مختارات قصصية ونقد أدبي، دار اكتب.

للتواصل

Hosammostafa_it@yahoo.com

فيس بوك

osamMostafaEbrahem/com.facebook

الفهرس

أهداء	٥
آخر شمس	٧
كعوب البنادق	١٣
الحصّة الأولى	١٩
أسود لامع بطريقة غادرة	٢٧
الحب الأول	٣١
أبو جبل	٣٧
حياة أخرى كاملة	٤٧
قمر مريض يضيء مساحة لا تزيد على عشرين	٥٥
الآخرون دائما	٦٣
عندما تلتقون مساء	٦٧
من أجل العشيرة	٧١
بطاقة ممتلئة	٧٥
عصفورة زرقاء	٧٧
الدرقة	٧٩
مريم	٨٥

أسود لامع بطريقة غادرة

تتحول ابتسامتها لضحكة رقيقة، تنير وجهها كله، فألتقطها بحرص وأضعها فوق رفوف الذاكرة، وأتأكد من تسكينها في مكان بارز، كي أستعيدها مرات فيما بعد، وأحيي بها ليلي، وأصل ما انقطع من مودة بيني وبين البهجة. السير جوارها في الطريق لا يزال أمرًا مدهشًا بالنسبة لي، فكيف -رغم مئات التفاصيل- لا يعود هناك أحد سوانا، لا العربات ولا الأرصفة ولا الشجر ولا العابرين ولا الأصوات؟! فقط نحن، وخلفنا فراغ وأمامنا فراغ، نشق الطريق فنُضفي بعض الحياة على ما تقع عليه أعيننا، ولا يلبث أن يفقدها ويعود جمادًا ساكنا بمجرّد تحوّلنا عنه!

حسام مصطفى إبراهيم

صحفي ومدرب صحافة ولغة عربية، مؤسس ورئيس تحرير موقع "اكتب صح www.ektebsa7.com صدر له ١٠ كتب من بينها، لدي الكثير جدا لأقوله لك "نصوص"، بتوقيت القاهرة "رواية"، اللحاق بأخر عربة في القطار "قصص"، يوميات مدرس في الأرياف "ساخر"، لولا وجود الحب، وقراءة في كف الحب "أدب رسائل".

ISBN 978-977-6605-76-3

دلتا للنشر والتوزيع

غلاف: إسلام الشماع